الكتاب الثاني

العراق القديم
في المصادر العربية

المقدمة

لتاريخنا القديم أهمية خاصة بين تراث الشعوب، فقد ابتدع أبناء وطننا العربي الكثير من مآثر الحضارة الإنسانية وسعى إلى تطويرها. لذا فحين ندرس هذه المادة نراها وحدة مترابطة عبر آلاف السنين، ولمضائها تغلغلت مضامينها في مآثر شعوب أخرى سواء كان ذلك تطبيقاً، كالزراعة والصناعة والطب، أو فكرياً محضاً كالدين والأدب.

وعلى أي حال، فإن التاريخ مهما كُتب فيه أو وَصَلنا عنه يبقى ناقصاً، أولاً لأن تدوين كل شيء مستحيل، وثانياً إن التدوين كثيراً ما يلاقي التلف والبلى، سواء كان ذلك بشكل متعمد أو مصادفة. لذا فإن أي بصيص أمل في مادة التاريخ ينبغي أن يُنتفع منه، وحتى وإن كان النقل التالي متأخراً من حيث الزمن، ومن ثم يعتوره التشويه والتحريف، لأننا في هذه الحال ينبغي إيجاد مسوّغات لذلك وبحثه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية.

إن مادة التاريخ القديم في المصادر العربية لم تنل من الأهمية لتكون محل بحث واضح مُفَصَّل، ولعل هذا الأمر يأتي من عدم اهتمام الباحثين في التاريخ القديم بالمصادر العربية الإسلامية، أو عدم اهتمام الباحثين في التاريخ الإسلامي بها لعدم علمهم الكافي بالتاريخ القديم.

وعلى أي حال إذا كان ذنب المصادر العربية الإسلامية عدم دقتها في إيراد أحداث الماضي، فإن ذلك لا يعني إهمالها. ومن الجلي أن المؤرخين العرب والمسلمين قد عانوا كثيراً من جمع المادة المتعلقة بالتراث القديم بسبب اندثار اللغات والخطوط القديمة التي دوَّنوا بها، ولصعوبة التوصل إلى أصل مادتها. وفي القرآن الكريم يرد حوار التاريخ القديم بين ملك مصر والنبي موسى:"قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ❖ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى" (طه: ٥١-٥٢). فهذه الآية الكريمة تدلنا على أن ذلك التاريخ كان يشغل بال الناس أنفسهم، وكان في معظم الأحيان مُعَلَّقاً بين الأسطورة والنقل المشوه.

يقول مؤرخنا العربي عبد الرحمن بن خلدون (ت- ٨٠٨ هـ): "أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتُشَدّ إليه الركاب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال. وتتساوى في فهمه العلماء والجهال...وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجموعها، وسطورها في صفحات ودفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهمّوا فيها وابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها وضعوها وأفتى تلك إلى آثار الكثير من بعدهم واتبعوها وأدّوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترَّهات الأحاديث ولا دمقوها. فالتحقيق قيل، وطرف التنقيح في الغالب كليل..."[١]. وقال:" وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والواقع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثّاً أو سميناً ولم يعرضوها على أحوالها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيروها بمعيار الحكمة..."[٢].

ويبدو أنه نظراً لصعوبة حصر الأحداث ضمن موازين واضحة أو ما يشبه ذلك وعدم إمكان استجلاء الماضي بأي وسيلة، سوى بالوثائق والشاخص من الآثار، فأن هناك العديد من العلماء لا يضعون التاريخ ضمن العلوم، وحتى المتأرخين منهم، فالعالم شمس الدين ابن الاكفاني (ت- ٧٤٩ هـ) صَنَّف العلوم بشكل جيد وواضح كالأدب بفروعه العشرة والمنطق بفروعه التسعة والعلم الإلهي والنواميس بفروعها ثمانية أصلية وعشرة فرعية، ثم علم الهندسة (بفروعه العشرة الاصلية ومثلها الفرعية) وغير ذلك ضمن اثني عشر علماً، إلاّ أنه لا يضع للتاريخ أصلاً ولا فرعاً[٣].

إن فائدة دراسة المادة موضوع البحث تكمن في ضرورة الإحاطة بمضمونها وما تعنيه بغية تسليط الضوء على حقيقتها.

إننا حين ندرس مادة عميقة الأثر لها السبق وأولوية الإبداع، في التراث الإنساني نرى نوعين من التعامل المؤسف معها من كتّاب شعوب عاشوا بعد أفول نجمنا السياسي، يقوم أحدها على ادعاء عناصرها الحضارية دون الإشارة إلى محل اقتباسها، وقد فعل اليونان ذلك بانتحال الكثير من مضامينها، وكذا فعلوا بالمصرية والسورية، وقد ساعدهم ذلك إهمال الكتابة بالخطوط المسمارية والهيروغليفية الصعبة، وتبنى اليونان الخط الهجائي الذي أخذوه عن العالم العربي أصلاً[٤]. أما الصيغة التعبيرية الأخرى التي نشاهدها فهي الأكثر خطورة ويكمن بالطعن في التاريخ السياسي وتشويه

الحقائق بشكل لا يحتاج إلى دليل وقد حصل هذا مع الفرس القدماء واليهود. وكل من الفرقتين تكنّ للعراق القديم العداء الواضح، وسنأتي إلى ذلك بأمثلة عديدة.

تقسيم حقب التاريخ

العراقيون، هم أقدم المؤرخين في العالم. هذا ما تؤكده المصادر العلمية، ومن الجلي أن اختراعهم للكتابة جعلهم يسعون إلى تطويرها لتكون أداة للتاريخ.

قسّم العراقيون التاريخ إلى حقبتين كبيرتين، حوت كل منهما سلالات متعاقبة أو عاصر بعضها بعضاً، ما دام العراق لم يكن موحداً، ولا سيَّما في عهود دويلات المدن (٤٨٠٠- ٤٣٥٠ سنة مضت).

كان الحدث الذي جعله العراقيون حَدَّاً فاصلاً لتقسيم تاريخهم هو "الطوفان"، الذي جاء زمن الحكيم السومري "اوتونابشتهم" (بالسومرية)، أو" آتر خاسس" (بالأكادية)[٥]، وهو عينه النبي"نوح" في المصادر العربية.

تشير المصادر العراقية القديمة أو (جداول إثبات الملوك)[٦]. إلى ثمانية ملوك حكموا في خمس مدن، تقع في جنوب العراق، وكانت أول مدينة ظهرت فيها الملكية، أو نزلت من السماء حسب تعبيرهم" اريدو" التي حكم فيها ملكان هما"الولم" و" الكار"مدة خيالية اسغرقت (٦٤٠٠٠ عام)، في حين بلغ حكم الثمانية (٢٤١٠٠٠ عام). وحينما حلّ الطوفان كانت الملكية قد حلّت في مدينه"شرّوباك"(تل فارة)، حيث كان الحكيم السومري الذي صنع الفلك توقعاً منه للطوفان. وهذا الحكيم السومري هو جد البطل السومري الملك"جلجامش" ملك مدينة الوركاء، قصة الطوفان هي جزء من قصة جلجامش. أما بعد الطوفان فقد حلّت الملكية في" كيش" قرب بابل حكم فيها (٢٣) ملكاً، كان أولهم" كاور"، الذي جعلوا له فترة حكم دامت (١٢٠٠) عام، يليه آخر حكم (٩٦٠) عاماً، وأقلّ ملك فيهم حكم (١٤٠) عاماً. وهكذا نرى أن سني حكمهم أمست قريبة من المعقول، حتى أن السلالة التالية لها التي اتخذت مقراً لها في"الوركاء"، كان منهم "دموزي"، أو" تموز"، صائد السمك قد حكم (١٠٠) عام. وآخر (٦) أعوام. وقد بلغ مجموع الملوك (١٢) ملكاً، حكموا (٢٣١٠) سنوات. وكلما أتت سلالة جديدة كانت سني حكم ملوكها أكثر معقولية، حتى أننا نرى أن سلالة"اكشاك" بملوكها الستة حكموا (٩٩) عاماً.

تُرى ما هو موقع الأسلوب العراقي القديم في ترتيب الأحداث في المصادر العربية؟ إن من يراجع "تاريخ اليعقوبي" (ت- ٢٩٢ هـ)، و"القانون المسعودي" للبيروني (ت- ٤٤٠ هـ). وتاريخ ابن خلدون (ت- ٨٠٨ هـ) يراهم وقد اتبعوا عين الأسلوب العراقي من حيث تقسيم التاريخ إلى حقبتي قبل وبعد الطوفان، ثم المبالغة بسني الحكم، فكلما كانت أقدم كلما كانت أطول، بما عهدناه في المصادر المسمارية. إلا أن هناك اختلافاً واحداً بينهما أن العربية جعلت من "آدم" أول البشر، ثم أبناءه الذين أتوا بعده، مع المبالغة في السنين التي عاشوها. وينبغي هنا أن نشير إلى نقطة مهمة تتمثل في أن المصادر المسمارية العراقية قد جعلت من السلالات الحاكمة والملوك أساساً لتقسيمه، أي عبر طابع سياسي في حين اعتمدت المصادر العربية على الاهتمام بآدم ثم بأبنائه وأحفاده كسلالة بشرية سواء كانت لهم أهمية سياسية أم لا. فالأمر منصب على خطّهم الديني مع المبالغة أيضاً في سني حياتهم.

وعلى أي حال لقد كان المؤرخون العرب والمسلمون في حيرة من التاريخ، ويُجسِّد ذلك قول "جمال الدين القفطي" (٥٦٨- ٦٤٦ هـ) في "تاريخ الحكماء" قوله: "وكل ما هو قبل طوفان لا تُعلم حقيقته لعدم المخبر به على الوجه"[٧]. مع ذلك فإن المصادر العربية حملت بين طياتها شيئاً من الحقيقة عن تلك الحقبة، فالبيروني في قانونه المسعودي تحدث عن ملوك كلدانيين سكنوا أرض بابل قبل الطوفان بلغ عددهم العشرة، كما نتذكر أنهم ثمانية بحسب المصادر العراقية، مشيراً إلى أن ثمانية منهم حكموا أقل من ألفي سنة في حين حكم الملكان الأخيران أكثر من ألفي سنة. أما أسماؤهم فتنتهي بالواو والنون أو الواو والسين، وهو ليس جرياً على الاسم العراقي السومري. وربما كان ذلك تأثراً بالنقل عن مصادر يونانية[٨].

أما اليعقوبي فيحدثنا عن: "أول الملوك" بعد الطوفان بأرض بابل ملوك السريانيين، فأول ملك منهم وعقد التاج على رأسه (شوسان) وكان ملكه ست عشرة سنة، ثم ملك بعده (بربر) ابنه عشرين سنة... وهم أحد عشر ملكاً آخرهم حلحابيس (١٢ سنة)"[٩]. وهذه الفقرة مهمة إذ تحدثنا عن سلالة حكمت بأحد عشر ملكاً، ولو راجعنا جداول إثبات الملوك نرى أن سلالة الوركاء. التي تلت سلالة كيش، حكم خلالها اثنا عشر ملكاً، وتتمثل أهمية ما ذكره اليعقوبي بالإشارة إلى الملك الأخير

باسم (حلحابيس)، ومن الواضح أنه تصحيف، أي خطأً في النقل لأن الاسم يطابق اسم خامس ملك سلالة الوركاء وهو البطل" جلجامش"[١٠].

وفي نص اليعقوبي إشارة مهمة أخرى عن " السريانيين" ولكن لما لم يكن هناك من وجود لهؤلاء في الجنوب وفي تلك الفترة فإن الاسم فيه خطأً لأنه أراد بذلك" السومريين"، لا سيَّما وإن" جلجامش" سومري وليس سرياني. ومثل هذا الخطأ نراه في إشارات للمسعودي[١١]. ومع ذلك فإن هذه أولى الإشارات في مصادر عربية عن" السومريين" ولو بشكل محرّف.

تستوقف الدارس لتاريخ العراق القديم نقطة مهمة تتلخص في المبالغة في سني حكم الملوك كلما توغلنا قديماً، وذلك بحسب جداول إثبات الملوك، وقد سبقت الإشارة إلى أن ثمانية ملوك حكموا لفترة (٢٤١٠٠٠ عاماً). وقد أشار الباحث إلى أن المصادر العربية الإسلامية تُشارك العراقية القديمة هذا الأسلوب فآدم عاش (٩٣٠عاماً)[١٢] و"شيت" ابنه (٩١٢ عاماً)، أما الحفيد العاشر فهو "نوح" (اوتونابشتم السومريين). الذي عاش (٩٥٠ عاماً)[١٣]. أما الحفيد التاسع عشر فهو(تارخ بن ناحور) وعاش (١٧٠ عاماً) وابنه "ابراهيم" عاش (١٩٥ عاماً)[١٤]. وبذلك نرى أن السنين لأبناء آدم يهبط عددها كلما اقتربنا من تاريخنا.

والآن لنسأل ما هو السر في ذلك؟

ليس من السهل على المرء أن يُصَدِّق بوجود إنسان عاش أو يعيش عشرات الألآف من السنين إلاّ إذا وصل حدّاً من السذاجة والعفوية. إذن هناك ما نتهمه بهذا الصدد وهو التقويم ولكي نصدِّق ذلك علينا أن نُبسِّط أمر ظهوره لدى قدماء العراقيين.

منذ عهود الكهوف والإنسان توّاقاً لمعرفة سرّ أحداث الكون. ومن البديهي أن تكون الحالات أو التغيرات التي تطرأ على القمر بالنسبة لمشاهد على الأرض، مجلبة لاهتمامه، فهو يظهر أول أمره كقوس صغير، ثم يتوسع يوماً بعد آخر ليمسي نصف دائرة بعد أسبوع، ثم بدراً بعد أسبوعين، بعدها يأخذ بالتناقص حتى ينمحق ليولد ثانية. وعليه فقد كان هذا الجرم السماوي خير معين أفاد منه الإنسان في ضبط ولو جزء من أيام حياته. أما الشمس فهي تتكرر يومياً بعين شكلها، لذا لم يكن ممكناً الإفادة من متابعتها لخلق تقويم في بيئة تنقصها الكتابة والمعرفة بالرياضيات.

وعند ممارسة الإنسان للزراعة قبل نحو عشرة آلاف سنة، احتاج إلى تقويم سنوي يضبط به مواعيد البذار والحصاد، الأمر الذي دفعه للإفادة من الشمس وتغيّر الفصول. وعلى الرغم من ذلك اتبع العراقيون تقويماً مزيجاً بين القمري والشمسي حتى في عهود الدول المتقدمة التي أسسوها كالبابلية والآشورية.

ومما سبق نستنتج أن التقويم لم يكن أول الأمر كما هو عليه في مرحلة نضج الحضارة في العراق، فالبساطة هي ما يبدأ بها كل اختراع.

وتبعاً لذلك لم تكن السنة تعني للقدماء في مطلع عهدهم بالحضارة ما عنته فيما تلا من العهود، فلربما كان اليوم عاماً، ثم الأسبوع، والشهر بمثابة أعوام. ومن هنا يمكن أن نحل معضلة المبالغة في السنين، فلو إننا قَسَّمنا (٢٤١٠٠٠ عام) لحقبة ما قبل الطوفان، على (٣٦٠) فسنحصل على (٥٠٢ عام) من أعوامنا تقريباً، وهي فترة ممكنة لثمانية ملوك. أما العمر المخصص لآدم (٩٣٠ عاماً)، ونوح (٩٥٠ عاماً)، فلو قسمناه على (١٢)، أي على عدد الأشهر، لحصل أن كلا منهما عاش حتى العقد السابع، وهو أمر معقول. وبمعنى آخر أن القمر كان الدليل السنوي الصغير والشمس الدليل السنوي الكبير لما تلا من الأيام.

أقوام عاشت في العراق ذكرتها المصادر العربية

تحدثنا المصادر العربية عن عدد من الأقوام التي سكنت قطرنا. ونفهم من الدراسات المقارنة أن تلك الأقوام هي إما أنها ذات أصول عربية أو كما تسمى في مصادر سامية نسبة إلى سام بن نوح، (ولا أفضل هذه التسمية). كالأكادية، البابلية، الآشورية، وغيرها، أو ذات أصول هندية أوروبية كالميتانية، الحورية، الكشية، والكردية.

وعلى أي حال، بما أن المصادر العربية اعتمدت على النقل عن مصادر أخرى تفاوتت في مصداقيتها، إما لجهل الكاتب أو تعمداً بغية الإساءة لأغراض سياسية أو دينية. وكما نعلم أن المصادر العربية لم تعتمد على التنقيب أو حل الكتابات القديمة بل على النقل. وينبِّه "ابن خلدون" على خطورة النقل العشوائي دون تمحيص بالقول:

"وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيّروها بمعيار الحكمة..."[١٥].

وحينما نستعرض قوائم أسماء الملوك وشخصيات مهمة قديمة نرى في إيرادها الكثير من الاختلافات سواء من ناحية ترتيب الأسماء، حسب تواريخها أو التواريخ المعطاة لها، وكذلك في كيفية إيراد الاسم والذي قد يدخل فيه الخطأ أو التصحيف. وعن هذه الظاهر يقول ابن خلدون:

"واعلم أن الخلاف الذي في ضبط هذه الأسماء إنما عرض في مخارج الحروف فإن هذه الأسماء إنما أخذها العرب من أهل التوراة ومخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب فإذا وقع الحرف متوسطاً بين حرفين من لغة العرب فترده العرب إلى هذا وتارة إلى هذا وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب إذا نقلت كلام العجم فمن هنا اختلف الضبط في هذه الأسماء. (واعلم) أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط"[١٦].

لقد أوردت المصادر العربية عدداً من الأقوام التي سكنت العراق منها:

١. السريان، الذين تجعلهم بعض المصادر بعد الطوفان، وقد أسلفت إلى أن الاسم تصحيف عن (السومريين). وليس لدينا عنهم إلا القليل بما ذكره اليعقوبي[١٧] والمسعودي[١٨]، وكذا ابن خلدون[١٩].

٢. البابليون والكلدانيون.

٣. الآشوريون.

أما عرب قبل الإسلام فسوف لا أعرض لهم لأن في ذلك دراسة خاصة تحت عنوان "في أصل العرب ومواطنهم"، عام ٢٠٠٤، عن الدار التي نشرت هذا الكتاب.

البابليون

كما نعلم أن البابليين اسم يطلق على أي مجموعة سكنت بابل سواء كان ذلك حين الحديث عن بابل كإقليم أو كمدينة. ومن المعلوم أن بابل كانت قرية صغيرة عند عصر فجر السلالات أو الأكادي، واسمها يعني "باب الإله أو الآلهة" (باب إيلي). كما ورد اسم آخر للمدينة "تن - تر - كي". وكانت أهم الاقوام القديمة التي سكنت الإقليم والمدينة "الأمويون" منذ مطلع الألف الثاني ق.م. ولأربعة قرون، وأهم ملك فيهم السادس وهو "حمورابي" (١٨٩٢- ١٨٥٠ ق.م). إلا أن المصادر العربية لا تذكره لبعده عن الفترة الإسلامية. وكثيراً ما يتبادل اسم "الكلدانيين" بالبابليين أيضاً، لذا فإننا نجد

أن المؤرخ "المسعودي" يضع عنواناً قوامه: (ذكر ملوك بابل وهم النبط وغيرهم المعروفين بالكلدانيين)[٢٠]. وفي أهل بابل قال: "ذهب جماعة من أهل التنقير والبحث والعناية بأخبار ملوك العالم أن أول ملوك بابل هم أول ملوك العالم الذين مهَّدوا الأرض بالعمارة وأن الفرس الأول إنما أخذت الملك عن هؤلاء كأخذ الروم المملكة من اليونانيين"[٢١].

وعلى أي حال، إننا حين نتحدث الآن عن الكلدانيين إنما نعني بهم البابليين ومن الإمبراطورية الحديثة التي أسسها "نابو بلاسر" (٦٢١-٦٠٤ ق.م)، والد "نبوخذ نصر" (٦٠٤-٥٦٢ ق.م). ومع ذلك كان من المصادر العربية من جعل من أول ساكني أرض بابل الكلدانيون، فالبيروني يورد جدولاً فيه "انتظام الأمر بملوك الكلدانيين النازلين آرض بابل قبل الطوفان". ويعدد منهم عشرة أولهم "يلوزوس" وآخرهم "كسيسو ثوروس"[٢٢]. وهي أسماء ليست بالسومرية ولا بالبابلية، ولم يرد أي منها في جداول إثبات الملوك، وهو أمر يشابه ما ذكره "ابن خلدون" عن الملوك الذين حكموا بعد الطوفان مباشرة والذين أورد لهم "المسعودي" تسعة، قوله: "بأسماء أعجمية لا فائدة في نقلها لقلة الوقوق بالأصول التي بأيدينا من كتبه وكثرة التغيير في الأسماء الأعجمية..." أما "البيروني" فيتحدث عن الكلدانيين وملوكهم الستة وأولهم "نمرود الجبار بن كوس بن حام بن نوح وهو أول ملك بعد الطوفان"، كما تحدث عن ثالثهم "سميروس" الذي أحدث المكاييل والأوزان وندب في أيامه صناعة التصوير حتى عبدت في أيامه الاصنام[٢٣]. إلا أنه يتحدث فيما بعد عن "ملوك بابل" وحكم (١٢) ملكاً وجميعهم بأسماء ملوك آشوريين باستثناء "مردوخ بلدان" الذي عاصر "سرجون الثاني" (٧٢١- ٧٠٥ ق.م) وابنه "سنحاريب" (٧٠٥- ٦٨٢ ق.م) كملك بابلي ثائر كان يلجأ في كل يوم إلى مكان هرباً من مطاردة الآشوريين.

الآشوريون

هم من الأقوام العربية القديمة (العاربة) التي سكنت العراق منذ ما يزيد على أربعة آلاف عام وعاصمتهم "آشور" قرب مدينة "الشرقاط" وذلك في العصر الآشوري القديم (٤٠٠٠- ٣٥٠٠ سنة مضت). ثم الآشوري الوسيط (٣٥٠٠- ٣٠٠٠ سنة) يليه العصر الإمبراطوري بقسميه منذ مطلع الألف الأول ق.م ولغاية (٦١٢ ق.م) الذي يمثل سقوط نينوى. وهذا العصر الأخير هو الذي تتحدث عنه المصادر العربية، أما العصران

السابقان له فلا تذكرهما المصادر العربية. وعلى الرغم من ذلك فإن الخلل كثيراً ما يعتري تسلسل الملوك وسني حكمهم كما أن أسماءهم ترد بشكل غير صحيح بالمرة أو اعتراها الكثير من التصحيف. وأبرز الملوك الذين تحدثت عنهم هذه المصادر "سنحاريب" ابن الملك سرجون الثاني في حين لا نجد ذكراً للعاهل الآشوري الكبير "آشور بانيبال"، وهو من خط الملك سرجون. كما وقد تختلط أسماء الملوك الآشوريين والبابليين معاً في بعض المصادر. ولنأتِ مثلاً إلى قائمة ملوك آشوريين ذكرهم "البيروني" تحت جدول عنوانه (ملوك بابل وملوك ماذاي وهو الحسيك). أما ثاني ملك لهم فهو: "تعب فلسر" ومما لا شك فيه هو تصحيف لاسم الملك "تجلات بلاصر" الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م) مشيراً إلى أنه "قصد أرض بني إسرائيل وسبى منهم وانصرف"[٢٤]. ثم جاء بعده "شلمنعسر" وهو تصحيف لاسم الملك "شلمنصَّر" (٧٢٨-٧٢٢ ق.م) أي الخامس. إلا أن "البيروني" يذكر وهو "بخسر الأول" أي نبوخذ نصر الأول، وهو خطأ. ومن الأحداث التي تحدث عنها أنه "قصد بني إسرائيل وسبى وأغار". ولا يراعي "البيروني" التسلسل بعد ذلك إذ يأتي اسم "سنحاريب سرجون" أي (سنحاريب ابن سرجون) الذي يذكر عنه أنه "شدد على اليهود وحاصرهم ثم أصاب عسكره فانهزم بنفسه ثم قتله أبناؤه بالموصل وهرب إلى الأرمن"[٢٥]. ثم يأتي بعده اسم "سرحوم" ولعله يعني (سرجون) والد سنحاريب، لأن يأتي بعده لذا ربما كان الاسم بالأصل "اسرحدّون" مُحرَّفاً، علماً بأنه لم يضع آزاءه أي أحداث. بعده يأتي اسم "مردوخ بلدان" البابلي الثائر، لذا فإن ذكره يأتي خطأ كأحد الملوك الآشوريين. ويلي الملك المذكور ملك أشار إليه البيروني باسم "سنحاريب الصغير". الذي وضع أمامه حادثة تاريخية لا أساس لها من الصحة تخص بناء مدينة "بوزنطيا" مشيراً إلى أنها "القسطنطينية". ويلي هذا الملك "فيليدي" ولا نعرف من هو هذا، يليه (نابوفلسر) الذي يصفه بالمجوسي لسبب لا نعرفه، ومن الواضح أنه "نبو بولا سر" والد "نبوخذ نصر".

ومن الغريب أن (البيروني) بعد سرده لأسماء ملوك آشوريين، ضمن قائمة بابلية يأتي إلى أسماء "ملوك الموصل وقصبتها"[٢٦]، وفيها يشير إلى أن أولهم "بايوس" الذي ينسب له بناء المشرق والحصون والهياكل، وإن النبي ابراهيم ولد زمانه[٢٧]، وبهذا يعود تاريخه إلى العصر الآشوري والبابلي القديم. ثم يذكر "انبرسوس" الذي هو برأيه باني

نينوى وإن ملكاً كنعانياً يدعى "ماكرديق" بنى "أورشليم"، أي القدس، عاش أواخر أيامه. ويلي هذا الملك اسم "شمير"، وهي "سمورامات"، كما يبدو (أي سميراميس لدى اليونان). وضمن الـ (٣٩) ملكاً آشورياً يشير إلى أن آخرهم "اوبال". ولا نعرف من هو هذا، وربما كان تصحيفاً لاسم العاهل "آشور بانيبال".

أما المسعودي، أبو الحسن، فيحدثنا في مروجه في موضوع "ذكر ملوك الموصل ونينوى وهم الآشوريون"[٢٨]. مشيراً إلى أن من أوائل ملوكهم "سابق بن مالك" الذي "ملك نينوى بعده امرأة اسمها سميرم فإقامتها عليهم أربعين سنة تحارب ملك الموصل وملكها من شاطئ دجلة إلى بلاد أرمينية ومن بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودي وجبل التيتل إلى بلاد الزوزان"[٢٩]. ومن الجلي أن "سميرم" هي زوجة الملك "شمسي آدد الخامس" (٨٢٤-٨١١ ق.م)، الذي قُتل وابنه "آدد نيراري الثالث" (٨١٠-٧٨٣ ق.م) كان لا يزال صغيراً مما دفع والدته لأن تكون ملكة حتى يمسي بمقدوره ممارسة مقاليد المُلك. ومن المعروف أن الكثير قد كتب عن هذه الملكة باسلوب اسطوري غالباً ولا أساس له من الصحة. علماً بأن "البيروني" أشار إلى أن "سميرم" هي زوجة "نينوس" وأنها بنت مدينة "سر من رأى". أي سامراء وبابل وعملت هيكل الصنم "قينان" سبعين سنة[٣٠].

أهم ملوك العراق القديم في المصادر العربية

لا تكثر المصادر العربية من الحديث عن ملوك كثيرين في العراق القديم، ويبدو أن ذلك بسبب قلة المصادر المتداولة والتي تتناول ما يفيد جانباً تاريخياً قد تكون له علاقة ببعض الأمور الدينية.

وعلى أي حال، فإن من يستعرض تلك المصادر يراها تركز على شخصين فقط هما:

سنحاريب الآشوري.

نبوخذ نصر البابلي.

سنحاريب

أحد أعظم ملوك العراق الآشوريين الذي خلف آباه سرجون منذ عام (٧٠٤-٦٨٦ ق.م) واهتم بالإصلاحات والإعمار، كما وجه همهه لإخضاع فينيقية وفلسطين ولا سيَّما بما تعلق بمملكة "يهوذا" زمن ملكها "حزقيا" وذلك في العام الرابع لحكمه وقام بتنحية حكامها وتعين حكام جدد. وتشير الحوليات الآشورية إلى الحصار الذي ضربه

هذا العاهل على "أورشيلم" والذي كما سنرى كيف أن المصادر اليهودية شوهت حقيقة أمره بمختلف أنواع التحريف والخداع. فمما ادعته تفشي الوباء "ولكن المرجح أن الجيش رفع الحصار عن أورشليم مقابل دفع جزية كبيرة من الفضة والذهب والنساء، من بينهم بيهن الملك، كما جاء في حوليات سنحاريب"[٣١]. ومما يؤكد مضاء وقوة الآشوريين أن الملك خطط وهو في فلسطين لتحرير مصر التي كانت تحكمها سلالة حبشية أجنبية.

ومن الأحداث المهمة زمن سنحاريب قضاؤه على متمرد بابلي يدعى "مردوخ بلدان" الذي كان يلتجئ تاره إلى الأهوار وتارة إلى عيلام في إيران.

سنحاريب في المصادر العربية وأثر التحريف اليهودي فيها

لم يحظ ملكان في التاريخ القديم من تشويه للسمعة كما حصل للعاهلين العراقيين سنحاريب ونبوخذ نصر ولم تقف افتراءات اليهود عند حد مصادرهم بل تجاوزتها إلى العربية الإسلامية وغيرها بشكل ملفت للنظر. وفي الوقت الذي نرى فيه أن المصادر العربية تهمل ملوكاً آشوريين وبابليين مهمين مثل "آشور بانيبال" و"نابونائيد". نراها تسلط الضوء بشكل مؤسف على الملكين السابقين بما لا يعقله أي شخص مهما أوتي من بسيط العلم في التاريخ لأن تلك المادة الملفّقة قابلة للنقد من كل الوجوه. ويكمن السر في ذلك التجني عليهما أنهما وجها ضربات موجعة إلى اليهود. ومن المؤسف أن المصادر العربية المهمة عبر كتّاب يشهد لهم كالطبري وابن خلدون انساقا وراء تلك الأكاذيب ومما يبدو أن سبب انسلال هذه المادة دون تمحيص يكمن في تقبل "الوحدانية" لدى اليهود، ولو بشكلها المحرَّف والمصلحي، وكراهيتهم من جهة أخرى للوثنية التي كان عليهما ملوك العراق القديم شأنهم شأن أي شعب في الماضي السحيق. كما أن وجود بعض الأنبياء اليهود زمن هذين الملكين "حزقيا" و"أشعيا" قد سهَّل تمرير المادة المشوهة التي روّج لها الكتاب اليهود.

ولنستعرض الأن جانباً مما أوردته المصادر العربية.

يقول الطبري (٢٢٤- ٣٨٥ هـ) تحت موضوع "ذكر صاحب قضية شعيا من ملوك بني إسرائيل وسنحاريب":

"فلما انقضى ملكه (أي حزقيا)[٣٢]، وعظمته فيهم الأحداث، وشعيا معه، بعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل معه ستمئة ألف راية، فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت

المقدس والملك مريض، في ساقه قرحة"[٣٣]. ثم يذكر تضرع أشعيا إلى الله أن يرد سوء الطالع عن ملكه، مما جعل الله "يؤخر أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه سنحاريب ملك بابل وجنده. فلما قال له ذلك (أي للملك)، ذهب عنه الوجع، وانقطع عنه الشر والحزن"!!. ثم قال الله لأشيعا النبي "قل له إني قد كفيتك شر عدوك، وأنجيتك منهم، وإنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنحاريب وخمسة من كُتّابه"[٣٤]!!!.

ومما أورده الطبري من أكاذيب اليهود:

"فلما أصبحو جاءه صارخ فصرخ على باب المدينة: يا ملك بني إسرائيل، إن الله قد كفاك عدوك فاخرج، فإن سنحاريب ومن معه قد هلكوا. فلما خرج الملك التمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه، فأدركهم الطلب في مغارة وخمسة من كتّابه أحدهم بختنصر، فجعلوهم في الجوامع، ثم أتوا بهم ملك بني إسرائيل، فلما رآهم خر ساجداً من حين طلعت الشمس حتى كان العصر، ثم قال لسنحاريب: كيف ترى فعل ربنا بكم؟ أم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون، فقال سنحاريب: قد أتاني خبر ربكم ونصره وأياكم"[٣٥]!!.

ثم يستمر الطبري في سرد ملاحم اليهود (البطولية!!) ضد الآشوريين بالقول:

"ثم إن بني إسرائيل أمر أمير حرسه فقذف في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس، وكان يرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم. فقال سنحاريب لملك بني إسرائيل القتل خير مما تفعل بنا، فافعل ما أمرت فأمر بهم الملك إلى سجن القتل، فأوحى الله إلى شعيا النبي: أن قل لملك بني إسرائيل يرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم ولكن معهم ويحملهم حتى يبلغوا بلادهم. فبلغ النبي شعيا الملك ذلك ففعل، فخرج سنحاريب ومن معه حتى قدموا بابل... ثم لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات"[٣٦].

ثم قال الطبري، مع بعض التحفظ:

"وقد زعم بعض أهل الكتاب أن هذا الملك من بني إسرائيل الذي سار إليه سنحاريب كان أعرج، وكان عرجه من عرق النسا، وأن سنحاريب إنما طمع في مملكته لزمانته وضعفه، إنه كان قد سار إليه قبل سنحاريب ملك من ملوك بابل يقال له ليفر وكان بختنصر ابن عمه كاتبه، وأن الله أرسل عليه ريحاً أهلكت جيشه، وأفلت هو وكاتبه، وإن هذا البابلي قتله ابن له، وأن بختنصر غضب لصاحبه، فقتل

ابنه الذي قتل أباه، وأن سنحاريب سار بعد ذلك إليه. وكان سكنه نينوى مع ملك أذربيجان يومئذ، وكان يدعى سلمان الأعسر، وأن سنحاريب وسلمان اختلفا، فتحاربا حتى تفانا جنداهما، وصار ما كان معهما غنيمة لبني إسرائيل". ثم قال:

"وقال بعضهم: بل الذي غزا حزقياً صاحب شعيا سنحاريب ملك الموصل، وزعم أنه لما أحاط ببيت المقدس بجنوده بعث الله ملكاً، فقتل من أصحابه في ليلة واحدة مئة ألف وخمسة وثمانين ألف رجل. وكان ملكه إلى أن توفي في تسعة وعشرين سنة"[٣٧].

أما "شهاب الدين النويري" (٦٧٧- ٧٣٣ هـ) فيذكر سنحاريب باعتباره ملكاً بابلياً لا آشورياً على الرغم من أنه وحَّد بابل مع آشور. يقول النويري:

"ثم ملك بعده أي بعد مردوخ، (وربما قصد مردوخ بلدان) سنحاريب. فكإن ملكه نحو من ثلاثين سنة، وهو الذي ابتنى بيت المقدس. ثم ملك بعده منوشاً فكان ملكه نحو من ثلاثين سنة، وقيل أقل من ذلك. ثم ملك بعده بختنصر الجبار"[٣٨].

أما "ابن خلدون" فقد خص "سنحاريب" بفقرات مطوّلة، وحسب النسخة التي اعتُمدت ذكر اسمه بصيغة "سنجاريف"، وقد ذكر سيرته جرياً على عادة مصادر أخرى ضمن احداث مملكة يهوذا. قال:

"ولأربع عشر من ملكه (أي حزقيا) زحف إليه سنجاريف (سنحاريب) ملك الموصل بعد فتح السامرة فأفتتح أكثر مدائن يهوذا وحاصرهم ببيت المقدس وصانعه حزقياً هو بثلاثمئة قنطار من الفضة، ثلاثين من الذهب أخرج فيها ما كان في الهيكل وبيت المال ونثر من الذهب من أبواب المسجد دفع ذلك له ورجع عنه ثم فسد ما بينهما وزحف إليه سنجاريف ثانياً وحاصره وامتنع من قبول مصانعته وقال: من ذا الذي خلصه إلهه من يدي حتى يخلصكم أنتم إلهكم. فخافوا منه وفزعوا إلى النبي شعيا في الدعاء فأمَّنهم منه ودعا عليه فوقع الطاعون في عسكره ثم تواقعوا في بعض الياليي فبلغ قتلاهم مئة عشرين ألفاً ورجع سنحاريب إلى نينوى والموصل فقتله ابناؤه وهربوا إلى بيت المقدس وملك ابنه اسر حرون (والصحيح اسر حدون)..."[٣٩]. ثم يذكر ما ذكره الطبري من أكاذيب عن "سليمان الأعسر" الذي اقترضوه ملكاً على أذربيجان[٤٠]. ثم قال عن ملك بابل باعثاً بالهدايا إلى حزقياً. ومما لا شك فيه أنه يقصد "مردوخ بلدان" حيث بالغ حزقياً في إكرامه الوفد وفخر عليهم بخزانته وطوفهم عليها فنكر ذلك عليه شعيا النبي وأنذره (بأن) ملوك بابل يغنمون جميع هذه الخزائن ويكون أبناؤك[٤١]

خصيان في قصرهم"[٤٢]. بعد ذلك يشير إلى موت حزقياً ومجيء ابنه القبيح السيرة وإنه "في تاسعة وثلاثين من ملكه ملك (سنحاريب) الصغير مملكة الموصل قاله ابن العميد وفي الثانية والخمسين بنت بوزنطية... وفي الحادية والخمسين من ملكه زحف سنحاريب ملك الموصل إلى القدس فحاصرها ثلاث سنين وافتتحها في الرابعة والخمسين من ملكه وولي بعده ابنه أمون (وهو تصحيف سرجون) وكانت حاله مثل حال ابيه فملك سنتين وقيل اثنتي عشرة ثم اغتاله عبيدة"[٤٣]. أي أن ابن خلدون أورد ملكين بصيغة (سنجاريف أي سنحاريب) وهو أمر لا أساس له من الصحة في سرد مثل هذه الأحداث إذ هناك أمور مُبطَّنة وراء هذا السرد.

أما "ابن العبري" فقال بأنه حزقيا "ملك تسعاً وعشرين سنة وأطاع الله وأزال الأصنام. فظفر الله بأعدائه تظفيراً. وفي السنة الرابعة من ملكه صعد شلمانعسر ملك بابل إلى أرض السامرة مرة ثانية وسبى جميع من بقي من العشرة الأسباط..."[٤٤]. أي أن (شلمانعسر) (أو سليمان الأعسر كما ذكر البعض اسمه) كان ملكاً بابلياً حسب ابن العبري وليس أذربيجانياً. ثم يشير إلى قصة الدعاء على سنحاريب وإفناء مئة ألف وخمسمئة وثمانين من الجند في يوم واحد. وهي أكاذيب. ثم قال: (ابن العبري):

"وكان حزقيا مما أتاه رسول سنحاريب أطلعه على جميع ما في بيته فغضب الله لذلك وقال له إن جميع ما رآه الآشوريون في بيتك يكون لملك بابل وستكون بنوك خصياناً له"[٤٥]. وهذه الفقرة تشير إلى خلط بين رسل "مردوخ بلدان" وسنحاريب لأنهما كانا متعاصرين.

لقد رأينا مما سبق أن النصوص المتعلقة بسنحاريب يعتورها الخلل من الناحيتين التاريخية والعقلانية، لذا يمكن اقتفاء التحريف والكذب في تلك النصوص بما يلي:

في النصوص التي أوردها الطبري:

أشار إلى أن سنحاريب كان بابلياً لا آشورياً.

أشار إلى أن حزقيا أمسى من الهلاك قاب قوسين ثم دعا له أشعيا (الذي يذكره باسم شعيا) ليؤخّر الله أجله (١٥) عاماً. وهي مسألة مفضوحة لإعطاء هذا الملك سمة إلهية دينية.

إن مقتل أكثر من نصف مليون عسكري آشوري في ليلة واحدة من الأمور التي لا يصدقها العقل. كما وأن بقاء خمسة أشخاص، هم من الكتبة لا العسكريين، بينهم

(نبوخذ نصر) (بختنصر) إلى جانب سنحاريب الملك، فأمر مفضوح، فما دام اليهود عاجزين عن الدفاع عسكرياً عن أنفسهم ابتدعوا فكرة الدعاء الساخن، والملاك المخلص للإساءة إلى سنحاريب ونبوخذ نصر معاً، على الرغم من أن المدة الفاصلة بين توليهما العرش تبلغ مئة عام. أما وقوع "سنحاريب" أسيراً بيد ملك اليهود ثم (سجوده) له فأمر لا يصدقه حتى ضعيف العقل. والأدهى من ذلك أن ما خصص له (رغيف خبز) ومن (الشعير)!!. ثم بعد ذلك أمسى (سنحاريب) رجلاً معفى عنه بأمر من (أشعيا) ليذهب ويصلح شعبه بعد ذله وخضوعه على يد (الجبابرة اليهود)!!.

لقد ورد في النص أن (ليفر) ملك بابلي سبق (سنحاريب) وإن (نبوخذ نصر) كان ابن عمه!!. الذي كان كاتباً وأن الرياح أتت على جيشه الذي لم يبق منه إلا الملك وكاتبه. وللتأكيد على ارتباك النص أعيد إيراده:

"إن هذا البابلي (أي ليفر) قتله ابن له، وإن بختنصر غضب عليه، فقتله ابنه الذي قتل أباه، وإن سنحاريب سار إليه بعد ذلك، وكان سكن نينوى مع ملك أذربيجان يومئذ، وكان يدعى سلمان الأعسر وإن سنحاريب وسلمان اختلفا، فتحاربا حتى تفانا جنداهما، وصار ما كان معهم غنيمة لبني إسرائيل".

ومن الواضح أن سنحاريب ونبوخذ نصر لم يعاصر بعضهما الآخر مطلقاً، وأن القصة ملفقة للإساءة إلى الملكين الكبيرين، أضف إلى ذلك، أننا لا نعرف ملكاً (أذربيجانياً) باسم "سلمان الأعسر" واختلافه مع "سنحاريب"، وبالتالي دمارهما ثم ذهاب ما لهما لبني إسرائيل.

أما بشأن "سلمان الأعسر" فقد ورد هذا الاسم لدى "ابن قتيبة"، (٢١٣- ٢٧٦هـ) في "المعارف" بصيغة "سلما عاشر"، وأشار إلى أنه بالعربية "سلمان الأعسر"[٤٦]. ومما لا شك فيه أن هذا الاسم تحريف عن اسم (شلمنصَّر) الذي حمله خمسة ملوك آشوريون، كان الثالث منهم قد حكم بين (٨٥٩- ٨٢٤ ق.م) ووجَّه ضربات موجعة إلى دويلة "بيت عومري" حسب الكتابات المسمارية (المسماة لاحقاً إسرائيل) وفرض عليها الجزية. وفي مسلته العتيدة، التي سمّاها اليهود وأحباؤهم بالسوداء، ما دامت تسود تاريخهم، علماً بأن العديد من المسلات هي من حجر الديورايت وبهذا اللون، ومن ذلك مسلة حمورابي أي لم تسم بهذا الاسم. وقد ظهر ملك اليهود "جيحو" (ياهو) في أعلى المسلة ساجداً أمام الملك شلمنصَّر الثالث.

أما شلمنصَّر الخامس فقد حاصر السامرة ووجه ضربات موجعة إلى اليهود ممهداً للملك سرجون الثاني تدمير بيت عومري المسمى خطأ (إسرائيل) عام (٧٢٢ ق.م) أي في السنة الأولى من حكمه. ومن الواضح أن هذين الملكين وباسم متماثل قد ولّدا عقدة نفسية لدى اليهود الأمر الذي حدا بهم إلى اختلاق الأكاذيب بصددهما تارة بنسبهما إلى "أذربيجان"، وأخرى باقتتالهما مع سنحاريب ثم "سيطرة اليهود على ما لهم من ثروة"!!.

أما بقية الفقرات الواردة بخصوص سنحاريب فيمكن اقتفاء الأسلوب البعيد عن العلمية فيها، وإن الأسباب الكامنة وراء ذلك واضحة تفضح ضعف اليهود الأمر الذي دفعهم لاختلاق الأكاذيب تحت ستار الدين والأنبياء.

نبوخذ نصر:

وهو أحد عظماء التاريخ العراقي القديم وشخصية بارزة في الميدانين السياسي والحضاري فقد ترك مآثر تتحدث عنها المصادر القديمة والحديثة.

يرد اسم هذا العاهل في المصادر العربية عموماً بصيغة (بختنصر) وهو اسمه عن البابلية (نابو- كودوري اوصر):

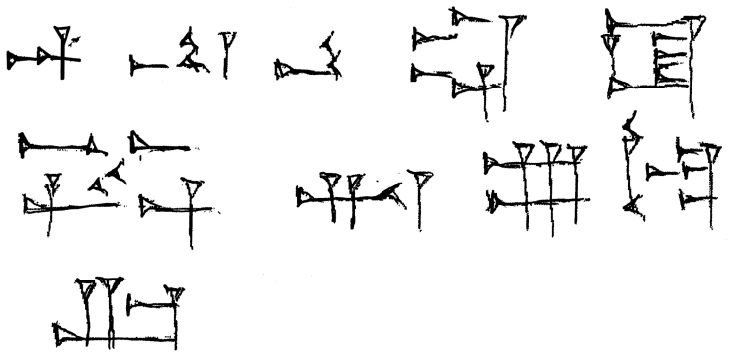

ورث هذا العاهل الكبير الملكية عن أبيه "نبوبولاسر" المؤسس حيث توج على العرش في (٢٣) أيلول من عام ٦٠٤ ق.م وقد قام بأعمال عمرانية كبيرة في تشييد المرافق المدنية والعسكرية. وما في بابل من مباني يعود معظمه لهذا الملك على الرغم من عبث الغزاة ونقل مواد البناء المجحف من المدينة منذ انتهاء الحكم الوطني وحتى ما أضاع الكثير من معالمها.

أما في الميدان العسكري فقد وجَّه همّه في توطيد دعائم ملكه، ولينجز ذلك جرَّد حملات ضد الدويلات السورية، ووجَّه ضربتين مدمرتين لمملكة (يهوذا)، وعاصمتها (القدس) "أورشليم"، الأولى زمن ملكها "يهوياكيم" و"آرميا" النبي، عام ٥٩٧ ق.م والثانية عام ٥٨٦ ق.م زمن الملك صدقيا حيث أسر ٤٠.٠٠٠ يهودي وجلبه لهم إلى بابل. ومن هنا تجلّت كراهية اليهود التقليدية لهذا العاهل الكبير نعهدها في تشويه سمعته بشتى الوسائل.

ورث الملكية في بابل من بعد هذا العاهل ابنه "آميل- مردوخ" (أويل- مردوخ بحسب كتاب اليهود) مدة عامين ٥٦٢- ٥٦٠ ق.م. ثم تولى قائد الجيش (نرجال- شار اوصر) (نرجلسار حسب كتاب اليهود)، وكان زوج ابنة "نبوخذ نصر". ثم تولى ابنه "لباشي مردوخ" الحكم بضعة أشهر حيث حدثت ثورة داخلية كان على أثرها اختيار "نبو نهيد" (نبو نائيد) الذي كان من أب من مدينة "حران" هو "نبو بلا صوا قبي" وأم كاهنة في معبد إله القمر هناك. وامتاز عهده بمكوثه في مدينة "تيماء" بشبه جزيرة العرب. وهو آخر ملك بابلي قضى على حكمه "كورش" الفارسي عام ٥٣٩ ق.م.

العاهل البابلي في المصادر العربية

يُعَدُّ هذا الملك الكبير أهم من سنحاريب في نظر المصادر العربية، لا سيَّما وأنه وجَّه الضربة الموجعة إلى اليهود ولا سيَّما في حملته الثانية عليهم.

وعلى أي حال، لا تتجلى بغضاء اليهود فقط لهذا العاهل بل والفرس أيضاً، فيبدو أن ما كان عليه من عظمة جعل الفرس يقللون من أهميته بجعلهم إياه تابعاً لأحد ملوكهم!! لا سيَّما وأن الطبري أتحفنا بفصل كامل عن ملوك فرس أسطوريين لا وجود لهم كانوا "مسيطرين" على إقليم بابل[٤٨]. ويبدو أن تاريخ الفرس القصير نسبة إلى مضاء الحضارة العراقية عبر التاريخ قد جعلهم يفترون الأكاذيب بهذا الأسلوب البعيد عن الأمانة عبر منطلقهم في الشعور بالنقص.

قال الطبري:

"ثم ملك أمرهم (أي اليهود) من بعده (أي من بعد حزقياً) يوياحين بن يويا قيم، فغزاه بختنصر فأسره وأشخصه إلى بابل بعد ثلاثة أشهر من ملكه. وملك مكانه متنيا عمَّه وسماه صديقياً[٤٩]. فخالفه، فغزاه فظفر به، فأوثقه وحمله إلى بابل بعد أن ذبح

ولده بين يديه. وسمل عينيه وخرَّب المدينة والهيكل. وسبى بني إسرائيل، وحملهم إلى بابل، فمكثوا بها إلى أن ردهم إلى البيت المقدس والشام الاشتاسب بن لهراسب، وعاملة على ذلك كله بختنصر"، وهي أكاذيب العجم كما أشرت وجعلوه تابعاً لملك خيالي لا وجود له.

قال:

"ويقال: إن بختنصر حمل إليه (أي لملك الفرس!!!) من أورشليم خزائن وأموالاً. فلما أحسّ بالضعف من قوته ملك ابنه بشتاسب، واعتزل الملك وفوضّه إليه. وزعم أن هذا بختنصر الذي غزا بني إسرائيل اسم (بخترشه)، وأنه رجل من العجم، من ولد جودرز، وأنه عاش دهراً طويلاً جاوز مدته ثلاثمئة سنة (!!)، وأنه كان في خدمته لهراسب الملك، أي بشتاسب، وإن لهراسب وجهه إلى الشام وبيت المقدس يجلي اليهود عنها"[٥٠].

وقال:

"... وكان فيمن سار إليه رجل من ولد سنحاريب الملك الذي كان غزا حزقيا بن آحاز الملك الذي كان بالشام وبيت المقدس من ولد سليمان بن داود صاحب شعيا، يقال له بختنصر نبو زرادان بن سنحاريب، صاحب الموصل وناحيتها، بن داريوش بن عبيري بن نيري بن روبا ابن رابيا بن سلامون بن داود طاحي بن هامل بن هرمان بن فودي بن حمول بن درمي بن قمائل بن صاما بن رغما بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام". وكل ما هو مسرود أكاذيب لا أساس لها من الصحة فنبوخذ نصر ليس ابناً لسنحاريب، كما أن نسبه الطويل هي أكاذيب أيضاً. والملاحظ هنا أن الطبري جعل العاهل البابلي ينتسب إلى حام ابن نوح وليس من سام ابنه أيضاً وهو ما نلاحظه في نسب التوراة للكنعانيين إلى حام بدلاً من سام. كما ورد في سفر التكوين (الإصحاح-١١).

وقال:

"وكان مسيره إليه (أي لملك اليهود) بسبب ما كان حزقيا وبنو إسرائيل إلى جدّه سنحاريب عند غزوه إياهم، وتوسل إليه بذلك، فقدمه بجماعة كثيرة، ثم اتبعه، فلما توافت العساكر بيت المقدس نصر بخترشه على بني إسرائيل لما أراد الله بهم من العقوبة، فسباهم، وهدم البيت وانصرف إلى بابل، ومعه يوحاحين بن يوياقيم ملك بني إسرائيل في ذلك الوقت..."[٥١].

ومما تذكره المصادر المسمارية صدام "نبوخذ نصر" مع ملك مصر قبل توليه

العرش في معركة "كركميش" ثم تعقّبه إياه إلى الحدود المصرية. إلاّ أن النقص الموجود في النصوص لا يجعلنا نعرف المدى الذي تغلغل إليه العاهل البابلي، الذي يبدو أنه وصل إلى ليبيا أو أعمق من ذلك[٥٢].

أما المصادر العربية فتؤكد دخوله إلى مصر. قال الطبري:

"فكتب اليم ملك مصر (أي لنبوخذ نصر عن اليهود الهاربين إلى مصر): ما هم بعبيدك ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، فغزاه بختنصر فقتله وسبى أهل مصر. ثم سار في أرض المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية، ثم انطلق بسبي كثير في أهل فلسطين والأردن بينهم دانيال وغيره من الأنبياء"[٥٣]. ويؤكد "ابن قتيبه" ذلك قوله:

"فسار "بختنصر" إلى ملك مصر فاقتتلا، فظفر به "بختنصر" فأسره، وأسر بني إسرائيل، وقتل جنوده، ثم لحق بأرض بابل"[٥٤].

ومما يقوله "ابن خلدون" في أصل العاهل البابلي:

"وقيل إن بختنصر من نسل أشوذ بن سام ولم يقع إلينا دافع هذا النسب ولعله أصح من الأول لأنه قد تقدم نسب سنحاريب[٥٥] في الجرامقة ثم الموصل منهم وهم من ولد أسود".

وقال:

"وأما بنو إسرائيل فيزعمون أن بختنصر من الكسدانيين (أي الكلدانيين) وهم ولد ناحور بن آزر أي ابراهيم عليه السلام. وكان لهم الملك ببابل وكان بختنصر هذا من أعقابهم وكان مدة دولته خمساً وأربعين سنة...."[٥٦].

أما "شهاب الدين النويري "فينحى منحى "الطبري" في خطئه الفادح بنسب تبعيه "نبوخذ نصر" المزعومة إلى الفرس، قال:

"ويقال في اسمه بالفارسية بخترشة، وكان مرزبانا" للهراسف، ومعنى المرزبان أنه ملك على ربع المملكة. وقد قدمنا أن الملك لهراسف كان قد جعله اصبهذا ما بين الأهواز إلى أرض الروم وقال: فسار حتى أتى دمشق فصالحه أهلها، ووجه قائداً له فأتى بيت المقدس فصالح ملك بني إسرائيل. من بني داود....وأخذ منه رهائن وانصرف فلما بلغ طبرية وثب بنو إسرائيل على ملكهم فقتلوه وقالوا له: إنك هادنت أهل الكفر وخذلتنا واستعدوا لقتال بختنصر لما بلغه ما كان، فكان لما فيه ذلك من بني إسرائيل- كتب إليه يخبره بقتلهم ملكهم، فأجابه بختنصر أن يقيم بموضعه حتى يوافيه، وأمره بضرب أعناق

الرهائن الذين معه. وسار بختنصر حتى أتى بيت المقدس فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرية وهرب الباقون إلى مصر...[٥٧]. ثم يسرد ما مرّ بشأن ملك مصر.

أما "ابن خلدون" فيذكر ببعض التفصيل أموراً تخص العاهل البابلي ولا سيَّما فيما يتعلق باليهود وهروبهم إلى مصر، وإن ملكها "فرعون الأعرج" تقاتل مع نبوخذ نصر في السنة الخامسة من حكم الأخير. ومما ذكره ابن خلدون نسب نبوخذ نصر قائلاً:

"ولنذكر هنا ما وقع من الخلاف في نسب بختنصر هذا وإلى من يرجع من الأمم"[٥٨]. ثم يذكر ما سبق إيراده من نسبه إلى "سنحاريب" وقول "هشام الكلبي" فيما نقل "الطبري".

وعلى أي حال، على الرغم من أن المصادر العربية نقلت فقرات مجحفة عن "نبوخذ نصر" عن مصادر يهودية أو أعجمية فإن بعضهم كان في ريب مما كان ينقل، فشهاب الدين النويري يورد قوله:

"وقد تقدم أن بختنصر لم يكن ملكاً وإنما كان مرزباناً لملوك الفرس الأول، إلا أن يكون هذا غير ذاك والله أعلم"[٥٩]!!.

أما ابن العبري فقال:

"واستخلف (أي سنحاريب) بخت نصر وكان ابن بنته وسار بسيرته"[٦٠].

وقال: "فسلط الله عليهم (أي على اليهود) بخت نصر فخرج من بابل في ستمئة ألف راية يريد أهل بيت المقدس وأرسل الله تعالى صاعقة على بيت المقدس فألهب مكان الرهبان وخسف بسبعة أبواب من أبوابها، فلما رأى أرميا ذلك طار حتى خرج من المدينة وخالط الوحوش ودخل بخت نصر وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم بعد أن قتل أربعين ألف رجل.. وأخرب بيت المقدس ونهب ما فيه..."[٦١]. ثم ذكر المعركة التي دارت بين ملك مصر وعاهل بابل.

ومما قاله ابن العبري عن صدقيا ملك اليهود:

"كان اسمه مشنيا ومختنصر سماه صدقيا. ملك إحدى عشرة سنة. ثم عصى ومنع الجزية التي كان يؤدِّيها إلى بختنصر. فعاد إليه وأسره وذبح أولاده بين يديه وسمل عينيه. وسار إلى أثور وجعله يدير الرحى مثل الحمار. وكان عمره اثنين وثلاثين سنة. ولما مات رميت جثته وراء السور فأكله الكلاب. وفي هذه المرة دخل بختنصر إلى مصر وأجزاء

البحر وهدم مدناً كثيرة وأحرق مدينة صور وقتل حيرم ملكها وكان عمره كما يقال خمسمئة سنة. وبعث بختنصر نبوزردن إلى أورشليم فدعثر سورها وأحرق الهيكل"[٦٢].

وإذا كان العاهل البابلي الكبير لم يسلم من جعله تابعاً ومما أورده الطبري من أكاذيب اليهود ثم الآخرين. قال الطبري:

ثم قام من بعده (أي نبوخذ نصر) ابن يقال له اولمردوخ (أي اويل مردوخ)، فملك الناحية ثلاثاً وعشرين سنة، ثم وملك فكان ابن يقال له بلتشصر أو لمرودخ، فلما ملك بلتشصر خلط في أمره، ففر له بهميه وملك مكانه على بابل، وما يتصل بها من الشام وغيرها الماذي المنسوب إلى ماذي بن يافث بن نوح عليه السلام من حين صار إلى المشرق، فقتل بلتشصر، وملك بابل وناحية الشام ثلاث سنين... ثم ملك بابل وناحيتها من قبل بهمن رجل من قرابته، يقال له اخسوارش ابن كبش بن جاماسب، الملقب بالعالم، من الأربعة الوجوه الذين اختارهم نخترشه عند توجهه إلى الشام من قبل بهمن، وذلك أن اخشوارش انصرف إلى بهيمن من عند تختنصر محموداً فولاه ذلك الوقت بابل وناحيتها"[٦٣].

لقد سبق أن أورد الباحث قائمة الملوك الذين تبعوا العاهل البابلي الكبير بالاسم ومدة حكمهم وبالمقارنة يتضح كذب النصوص التي أوردها (الطبري). كما أن النص الأخير يجعل (اخشوارش) (أي اخشويرش) معاصراً لنبوخذ نصر في حين أتى بعده بزمن طويل وأن أكاذيب المصادر الفارسية تجعله عاملاً من ملك خرافي يدعى (بهمن).

ويورد "ابن خلدون" ترجمة موجزة في ذلك بقوله:

"وملك بعد (أي نبوخذ نصر) اويل ماخ ثلاثاً وعشرين سنة ثم بعد ابنه فيلسنصر بن اويل ثلاث سنين ثم غلب عليه كورش وأزال ملكهم"[٦٤].

وهذا النص مفعم بالأخطاء من ناحية إيراد الأسماء وفترات الحكم، ثم قضاء كورش على الشخص الذي من المفروض أن يكون الملك هو "نابونائيد" الذي لا تذكره المصادر العربية.

وعلى أي حال، لم أوغل في نقد أقوال "ابن العبري" أو غيره لأن المطلع على أحداث العصر البابلي الحديث يتضح له أن ما ورد من حديث عن "نبوخذ نصر" لم يكن مرده عدم وجود وثائق لدى من سطر أحداثاً لا وجود لها، بل إن الأمر كان مقصوداً لتشويه سمعة بابل وعاهلها الكبير بأساليب خبيثة شارك فيها الكتاب الفرس واليهود.

عاصمتان وتراث

بعد أن تحدثنا عن عاهلين عراقيين مهمين أحدهما ضمن قائمة الملوك الآشوريين والآخر ضمن القائمة البابلية نأتي إلى فقرات تتحدث عن مدينتين كانتا عاصمتين للعراق ولأهميتهما فقد أشارت لهما مراجع عربية كثيرة وأعني: بابل ونينوى.

قال "الطبري":

"حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرني هشام بن محمد، قال: أخبرني أبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: لما ضاقت بولد نوح سوق ثمانين تحولوا إلى بابل فبنوها، وهي بين الفرات والصراة وكانت اثني عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخاً، وكان بابها موضع دوران اليوم فوق جسر الكوفة يسرة" إذا عبرت، فكثروا بها حتى بلغوا مئة ألف وهي على الإسلام"[٦٥].

أما "الحميري" في "الروض المعطار" فقال:

"كانت بابل في عظمها واستبشاعها أمرها لا تكاد تجعل من عمل الآدميين... وينسب إليها السحر والخمر... ويقال أن نمرود أسسها، وهي مدينة ضاحكة المنظر جميلة المنصب زاهرة البناء واسعة الغناء قد جمعت إلى حسن المنظر من كل جانب رصانة البنيان وبهاء المنصب، وكانت سهلة بطحاء ديمومة فيحاء مربعة لها في كل تربيع حصنان عظيمان، وسائر ذلك من سورها لا يكاد من يبلغه يصدق بصفته لكثرة ارتفاعه وفرط إتقانه، وكان خمسين ذراعاً عرضاً في ارتفاع مائتي ذراع في دور أربعة وستين ميلاً، مبيناً بالآجر المرصرص، وقد خندق هو لها بخندق يجري فيه الفرات وفيه مئة باب من نحاس. وسعة السور في أعلاه كسعته في أسفله، وقد بني في أعلاه مساكن للمقاتلة والجوابي متصلة في جميع دوره. قالوا: وبابل أقدم بناء بني بعد الطوفان وإن منها تفرق ولد نوح عليه السلام، وإن الذي هدمها كسرى الأول ملك الفرس لما تغلب على أرض بابل، وملوك بابل هم النبط، وزعموا أنهم أول ملوك العالم وأن الفرس أخذت عنهم..."[٦٦]، والفقرة الأخيرة مما سبق ذكره نقلاً عن المسعودي في أصالة أثر بابل.

وقال ياقوت الحموي (ت- ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م):

"وقال أبو الحسن بابل الكوفة وقال أبو معشر الكلدانيون هم الذين كانوا ينزلون بابل في الزمن الأول. ويقال: إن أول من سكنها نوح عليه السلام، وهو أول من

عمَّرها، وكان قد نزلها بعقب الطوفان، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها لطلب الدفء، فأقاموا بها وتناسلوا فيها وأكثروا من بعد نوح، وملكوا عليهم ملوكاً، وابتنوا المدائن واتصلت مساكنهم بدجلة والفرات إلى أن بلغوا دجلة أسفل كسكر- من الفرات إلى ما وراء الكوفة وموضعهم هو الذي يقال له السواد، وكانت ملوكهم تنزل بابل، وكان الكلدانيون جنودهم، فلم تزل مساكنهم قائمة إلى أن قتل دارا أخر ملوكهم... وكذلك بخت نصر الذي يزعم أهل السير أنه ممن ملك الأرض بأسرها"[٦٧].

وقال "الحموي" أيضاً:

"قال أبو منذر هشام بن محمد إن مدينة بابل كانت اثني عشر فرسخاً في مثل ذلك، وكان بابها مما يلي الكوفة وكان الفرات يجري ببابل حتى صرفه بختنصر إلى موضعه الأن مخافة أن يهدم عليه سور المدينة لأنه كان يجري معه قال: ومدينة بابل بناها بيوراسب[٦٨] الجبار واشتق اسمها من المشتري لأن بابل باللسان البابلي الأول اسم للمشتري، ولما استتم بناؤها جمع إليها كل عدد البروج، وسماها بأسمائهم، فلم تزل عامرة حتى كان الاسكندر، وهو الذي خرَّبها"[٦٩]. ومن المعلوم أن اسم بابل يعني "باب الإله أو الآلهة". أما علاقة المشتري بها فلا يخص الاسم بل إلهها "مردوخ".

ومما يذكره الحموي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل دهقان الفلوجة عن عجائب بلادهم، فقال:

"كانت بابل سبع مدن، وفي كل مدينة أعجوبة ليست في الأخرى، فكان في المدينة التي نزلها الملك بيت فيه صورة الأرض كلها برساتيقها وقراها وأنهارها..." ثم يعدد ما في مثل المدن من عجائب بما فيها من مبالغة من ذلك أنه كان في المدينة الرابعة: "مرآة من حديد فإذا غاب الرجل عن أهله وأحبوا أن يعرفوا خبره على صحته، أتوا تلك المرآة فنظروا فيها فرأوا على الحال التي هو فيها". "وفي المدينة الخامسة أوزة من نحاس على عمود من نحاس منصوب على باب المدينة، فإذا دخلها جاسوس صوتت الإوزة بصوت سمعه جميع أهل المدينة..."[٧٠].

ومما لا شك فيه أن تلك المبالغات فيها ما يشير إلى رفعة اسم بابل وكونها موطناً ومنطلقاً للعلم، حتى إننا نرى أن ما يتحدث عنه الناس، حتى في عهود الإسلام ما يشير إلى رفعتها وحب الناس لها.

أما "أبو الفداء" (ت- ٧٣٢ هـ) فقال:

"وقد صار في موضعها قرية صغيرة. قال ابن حوقل وبابل قرية صغيرة إلا أنها أقدم أبنية العراق ونُسب ذلك الإقليم إليها لقدمها، وكانت ملوك الكلدانيين[٧١] وغيرهم يقيمون بها وبها آثار أبنية أحسبها أن تكون في قديم الأيام نصراً عظيماً"[٧٢].

أما مدينة نينوى فخبرها قَلَّ أن نجده في المصادر العربية، لأن التاريخ البابلي أقرب إليها من الآشوري وذلك بسبب الفاصلة الزمنية الأبعد. وعن هذه المدينة يحدثنا "ياقوت" بإيجاز قوله:

نينوى: "بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو بوزن طيطوى، وهي قرية يونس بن متى، عليه السلام بالموصل وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى"[٧٣].

ويقول "الحميري" (القرن: ٧-٨ هـ):

"كورة من كور الموصل من عمل الجزيرة، وهي مقابلة للموصل بينهما دجلة.. وأول من بنى هذه المدينة ملك يقال له بسوس وكان ملكه من شاطي دجلة إلى أرمينية إلى أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودي... وقد خربت وآثار سورها بينه وأصنام من حجارة مكبوبة على وجوهها"[٧٤].

التوراة وما فيها من إشارات إلى العراق القديم

حينما نستعرض تاريخ العراق القديم من خلال المصادر العربية ونلقي نظرة على ما جاء في التوراة لسبب بسيط هو أن بعض المؤرخين العرب والمسلمين اقتبسوا جانباً منها.

كان ملوك العراق على تماس مع اليهود في عصر الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية بشكل خاص. وأكثر ما كانت تلك الصلات عسكرية ولما تتركه الحملات من ردود فعل فعلينا أن لا نتوقع عكس الأحداث بشكل منصف أو ما يشبه ذلك. ومثل هذا الأمر نلمسه في السطور التي كُتبت عن مصر حين كان اليهود يعيشون فيها فكل شيء لا يعكس عظمة مصر وروائع حضارتها بل الكراهية المطلقة لمصر وشعبها والتشفي لما يصبها.

يقع كتاب اليهود في ٣٩ سفراً، حسب النسخة المتداولة منها، ويقع معظم ما كُتب عن العراق في سطور لبعض من أُطلق عليهم اسم "الأنبياء" وفي سفري الملوك والأيام. الا أن أول تلميح عن أحد أهم مدن العراق جاء في أول سفر، وهو (التكوين)، دون ذكر لأسماء ملوك أو حكام. لقد جاء ما يلي:

"وكانت الأرض كلها لساناً واحداً. وحدث في ارتحالهم مشرقاً أهم وجددوا بقعته في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبناً ونشويه شياً، فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الجمر مكان الطين. وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه السماء ونصنع لأنفسنا اسماً لا تتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الرب ينظر المدينة والبرج الذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والأن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعي اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض"[٧٥].

وعلى أي حال، يمكن مناقشة ما ورد في تلك السطور بالآتي:

إن "شنعار" الوارد اسمها تعني جنوب العراق، وكان فيها لسانان لا واحد هما: السومري والأكادي، ولم يُشتق أحدهما من الآخر.

إن سكان العراق القديم استمروا على البناء بالطين ثم باللبن غير المشوي منذ بداية الاستقرار في مواطن منذ نحو ١٠ آلاف عام واستمر الأمر كذلك حتى قبل نحو ٥٠٠٠ عام دون معرفة واضحة بالطابوق.

إن المدينة المقصودة بالبناء (بابل) لم تُبن دفعة واحدة بل كانت قرية بسيطة منذ العهد الأكادي ثم نمت وتوسعت خلال العصر البابلي القديم قبل ٤٠٠٠ عام ولا سيَّما زمن ملكها حمورابي ١٧٩٢- ١٧٥٠ ق.م.

إن بناء الزقورة أو البرج المدرج جاء لاحقاً وليس منذ بداية تأسيس المدينة. علماً بأن أول تشييد لزقورات بشكلها الكامل كان زمن مؤسس سلالة أور الثالثة (اورنمو) قبل نحو ٤١٠٠ عام. أما برج بابل بصيغته الأخيرة فكان خلال عصر المدينة الإمبراطوري ٦٢٦- ٥٣٩ ق.م. ومما يبدو أن تعبير "برجا رأسه السماء"هو من اسم هذا المعبد بالبابلية (أي-تمن-آن-كي)، أي البرج الذي أساسه السماء والأرض[٧٦].

كلنا يعلم أن الله جلت قدرته ليست له مواصفات مادية فهو منزَّه عن الصعود والنزول. لذا فإن العبارة: "فنزل الرب لينظر المدينة والبرج" إضافات من الفكر الوثني ومثل هذه المواصفات نراها في القسم الأخير من (الإصحاح - ٣٢) عند لقاء النبي يعقوب لشخص وصارعه من الليل وحتى الفجر، وغلب يعقوب هذا الشخص الذي سأله: "ما اسمك؟ فقال: يعقوب فقال: "لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت

مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي. وباركه هناك" والأمر هنا لا يحتاج إلى إيضاح لأن الذي صارعه يعقوب وتغلب عليه هو (الله). ومن ثم فإن فقرات الافتراء على بابل مرفوضة من أناس لا يفهمون حقيقة التوحيد ولا كون الخالق: "ليس كمثله شيء"[٧٧]. ومثل هذا نراه في السفر الثاني (الخروج) ففي الإصحاح (٢٤) جاء ما يلي: "ثم صعد موسى وهرن وناداب وآبيهو سبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا (معه) وشربوا؟ (الفقرات: ٩-١١).

إن اسم بابل باللغة البابلية (باب - ايلي) بمعنى: باب الله أو الآلهة. واسمها بالسومرية: "كا-دنكر-را"، وهو ما يعنيه اسمها بالبابلية. ومن ثم فإن تلفيق الاسم وجعله من (بلبلة الألسنة) آكاذيب لا أساس لها من الصحة، وإنما جاء الأمر لغاية مكشوفة تتلخص في تشويه سمعة بابل التي وجهت ضربتين مهلكتين لملكة يهوذا زمن عاهلها الكبير "نبوخذ نصر". علماً بأن كتاب اليهود لم يدوَّن إلا بعد انتهاء العصر البابلي الإمبراطوري، أي بعد عصر نبوخذ نصر.

وفي سفر التكوين يرد في (الإصحاح-١١) اسم بابل وآكد وآرَك (الوركاء) وهذه أول مرة يرد فيها اسم مدينة أكاد عاصمة الأكاديين. ولا يجعل الإصحاح سكانها من الساميين بل من الحاميين الذين ينسب اليهود إليهم المصريين والكنعانيين.

وإذا كان ما أشرنا إليه عن عموم العراق نتصفح فقرات مما ورد في كتاب اليهود عن جانب أخر يخص ملوكه، ومن البديهي أولئك الذين احتك بهم اليهود. ولم يشر كاتبو سطور التوراة بشيء عن ملوك العراق الأقدم من القرن التاسع ق.م. وحين ذكرهم للملوك البابليين والآشوريين فبصيغ نرى فيها بعض التحريف فالملك "شرّوكين"، بمعنى الملك الحقيقي أو الصادق أسموه "سرجون"، و"سين أخي أريبا"، جاء بصيغة "سنحاريب"، و"آشر آبلا ادينا" دعوه "آشور بانيبال"، و"نبوخذ نصر" في الإصحاح الأول من "دانيال"، وفي الثاني وما يليه يرد بصيغة "نبوخذ نصر". وفي الملوك الثاني (٢٥: ١) نبوخذ نصر، وفي نفس السفر يرد اسمه بالصيغة المعتادة، كما يرد في "ارميا" بصيغة "نبوخذ نصر" أيضاً[٧٨]، وكذا "نبوخذ ناصر"[٧٩].

إذا ما أتينا إلى العهد الآشوري، فإننا سنتحدّث عن الجانب الإمبراطوري منه

٩١٠- ٦١٢ ق.م لأن العهدين القديم ٢٠٠٠- ١٥٠٠ والوسيط ١٥٠٠- ٩١٠ ق.م لا يتناولهما كتّاب اليهود لجهل الكتبة به. وإذا كان سفر الملوك الثاني قد وافانا بمعلومات عن بعض ملوك العهد الآشوري الإمبراطوري فإن الأول منه لا يحدّثنا في معظم إصحاحاته إلا عن الملك سليمان ٩٧١-٩٣١ ق.م. وأحداث غير بعيدة عن زمنه. أما الثاني فيحدِّثنا في مطلعه عن علاقات اليهود بالآراميين وحروبهم معهم من ذلك الكلام عن "نعمان رئيس جيش آرام" في الإصحاح الخامس.

أما فيما يخص الآشوريين، فإن ذكرهم يبدأ من عصرهم الإمبراطوري ويشير سفر الملوك الثاني إليهم. لقد جاء في الإصحاح (١٦) منه علاقة مساومة بين (آحاز) ملك (يهوذا) و"تجلات بلاصَّر" "تغلات فلاسر- حسب الإصحاح" ضد ملوك الآراميين:

"وأرسل آحاز رسلاً إلى تغلات فلاسر ملك آشور قائلاً: أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علي. فأخذ آحاز الفضّة والذهب الموجودة في بيت الرب - في خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك آشور هدية. فسمع له ملك آشور وصعد ملك آشور إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير وقتل رصين. وسار الملك آحاز للقاء تغلات فلاسر ملك آشور إلى دمشق ورأى المذبح الذي في دمشق.."[٨٠] وفي نهاية الإصحاح: "وقطع الملك آحاز القواعد ورفع عنها المرخصة وأنزل البحر من ثيران النحاس التي تحته وجعله على رصيف من حجارة ورواق السبت الذي بنوه في البيت ومدخل الملك من خارج غيره في بيت الرب من أجل ملك آشور"[٨١]. إلا أن مما تجدر الإشارة إليه أن ذكر ملك يهوذا آحاز لملك إسرائيل، جاء عبر تسمية لاحقة، إذ إن النصوص الآشورية والبابلية لا تذكر ما عرف لاحقاً بأقلام الكُتَّاب اليهود بإسرائيل بل بمصطلح "بيت عومري"[٨٢]. علماً بأن التجمّع اليهودي في فلسطين انقسم إلى قسمين بعد "سليمان": السامرة ويهوذا. "أما السامرة (بيت عومري) التي عرفت خطأ باسم إسرائيل فقد قضى عليها سرجون الآشوري ٧٢٢- ٧٠٥ ق.م في مطلع حكمه"[٨٣].

وفي "أخبار الأيام الأول"، التالي لسفر الملوك الثاني يأتي اسم "تجلات بلاصَّر" بصيغة "تلغث فلناسر" في الإصحاح الخاص وترد إشارة لأسرة (بئيرة) اليهودي. وفي نهاية الإصحاح يأتي اسم ملك آخر إلى جانب "تجلات بلاصَّر" هو "فول" كملك لآشور أيضاً. وفي الإصحاح ٢٨ من أخبار الأيام الثاني يرد ذكر "تجلات بلاصر" الملك بالصيغة السابقة حيث يستلم استغاثة من "آحاز" ملك يهوذا:

"في ذلك الوقت أرسل الملك آحاز إلى ملوك آشور لكي يساعدوه. فإن الأدوميين أتوا أيضاً وضربوا يهوذا وسبوا سبياً، واقتحم الفلسطنيون مدن السواحل وجنوبي يهوذا وأخذوا بيت شمس وإيلون وجديروت وسوكو وقراها وتمنة وقراها وجمزو وقراها وسكنوا هناك. لأن الرب ذلل يهوذا بسبب آحاز ملك إسرائيل لأنه أجمع يهوذا وخان الرب خيانة. فجاء عليه تغلات فلاسر ملك آشور وضايقه ولم يشدده. لأن آحاز أخذ قسماً من بيت الرب ومن بيت الملك ومن الرؤساء وأعطاه لملك آشور ولكنه لم يساعده"[٨٤]. ويحدثنا "أخبار الأيام الثاني "عن "منسي ابن حزقيا" الذي تسلم السلطة وعمره ١٢ سنة كملك يوذا: "وعمل الشر في عيني الرب ... فَجُلب بخزّامة وقيّدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل"[٨٥]. ولم يذكر الإصحاح اسم ملك آشور.

وفي سفر "يونان بن أمتاي" (صاحب الحوت) تقرأ أن الرب أمره بالذهاب إلى "نينوى المدينة العظيمة"[٨٦]. بغية إرشاد أهلها. ولعل هذه هي المرة الأولى التي نقرأ فيها نبياً منسوباً إلى اليهود يذهب لبعض غير أبناء ملته. لو راجعنا "سفر الخروج" وما فيه من أحداث تخص اليهود حينما كانوا بمصر نرى أن الغاية من المعجزات التسع التي قام بها موسى أمام ملك مصر هي لإجباره على السماح لليهود بمغادرة مصر، ولم يكن لنصح الملك على اتباع مبدأ التوحيد ثم الحد من جبروته. وهذه الحالة هي عكس ما نراها في القرآن الكريم حينما يخاطب الله النبي موسى بالقول: "اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى"[٨٧]، وكذا يخاطبه وأخاه: "اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ❖ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى"[٨٨]. والذي يبدو أن إبعاد اليهود سمة الدعوة لغير مجموعتهم هو للتأكيد على مبدأ (قومية) وعنصرية الفكر اليهودي. أما في سفر (يونان) فالأمر مختلف يشرحه لنا الإصحاح الثالث:

"ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلاً قم اذهب إلى نينوى العظيمة ونادِ لها المناداة التي أنا مكلمك بها".

"فقام يونان وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب. أما نينوى فكانت مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة أيام. فأخذ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحد ونادى وقال بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى".

"فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطّى بمسح وجلس على الرماد. ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: لا تذق الناس ولا البهائم ثم

ولا البقر ولا الغنم شيئاً. لا ترع ولا تشرب ماءً. ولتغط بمسوح الناس والبهائم ويصرخوا إلى الله بشدة ويرجعوا كل واحدة عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم. لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حمو غضبه فلا نهلك".

"فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه"[٨٩]. وفي نهاية الإصحاح الرابع يريد الله الموت بيونان، وفي آخر سطر يقول الله:

"أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوه من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرةً!!. والسؤال: إذا كانت نينوى عظيمة فكيف لا يعرف شعبها "يمينهم من شمالهم". إنه طعن مُبطَّن بالآشوريين ومن المفيد الإشارة إلى أن هذا السفر لا يشير إلى اسم ملك آشور، كما هو الحال مع ملوك مصر الذين يرد ذكرهم بلقبهم "فرعون" ليس إلا، الأمر الذي يجعل العديد من تلك النصوص مشكوكاً بها.

من الملوك الذين لعبوا دوراً تاريخياً مهماً في حياة العراق القديم "شلمنصَّر الثالث" ٨٥٨-٨٢٤ ق.م، ابن الملك "آشور ناصر بال الثاني" ٨٨٣-٨٥٩ ق.م وكجزء من فعالياته العسكرية حملته على (يهو) ملك السامرة، الذي صوَّره "شلمنصَّر" ساجداً أمام أقدامه في مسلته. ومع ذلك فإن سفر الملوك لا يذكره. أما "شلمنصَّر" الذي تشير إليه التوراة فهو الخامس ٧٢٧-٧٢٢ ق.م بما نصه:

"في السنة الثانية لـ آحاز ملك يهوذا ملك هوشع بن ايله في السامرة وعلى إسرائيل تسع سنين. وعمل الشر في عيني الرب ولكن ليس كملوك إسرائيل الذين كانوا قبله. وصعد عليه شلمناسر ملك آشور فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية. ووجد ملك آشور في هوشع خيانة، لأنه أرسل رسلاً إلى سوا ملك مصر ولم يؤدِ جزية إلى ملك آشور حسب كل سنة. فقبض عليه ملك آشور وأوثقة في السجن. وصعد ملك آشور على كل الأرض وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين. في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وسبى إسرائيل إلى آشور وأسكنهم في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي"[٩٠]. وفي السفر التالي جاء:

"وفي السنة الثالثة لهوشع بن ايلة ملك إسرائيل ملك حزقيا بن آحاز ملك يهوذا... وكان الرب معه وحيثما كان يخرج ينجح وعصى على ملك آشور ولم يتعبد له...

وفي السنة الرابعة للملك حزقيا وفي السنة السابعة لهوشع بن ايلة ملك إسرائيل صعد شلمناسر ملك آشور على السامرة وحاصرها. وأخذوها في نهاية ثلاث سنين، ففي السنة السادسة لحزقيا وهي السنة التاسعة لهوشع ملك إسرائيل أخذت السامرة. وسبى ملك آشور إسرائيل إلى آشور ووضعهم في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي"[٩١].

إلا أن من يتابع الأحداث في عين الإصحاح ١٨ يرى أن الكاتب لا يراعي التسلسل التاريخي، فبعد أن نسب احتلال السامرة إلى "شلمنصَّر"، وهو الخامس كما أشرنا. يأتي مباشرة ذكر الملك "سنحاريب" ٧٠٤-٨٦١ ق.م ولا يذكر والده "سرجون" ٧٢٢-٧٠٥ ق.م على الرغم من أنه هو الذي أزال "السامرة"، أو ما تسمى (إسرائيل) من الوجود. أي أن هناك إهمالاً لسبع عشرة سنة من الأحداث لملك له مكانته التاريخية البارزة في السياسة والإعمار. ومثل هذا نراه في "الأيام الثاني" حيث ترد الإشارة إلى "آحاز" وهو يلتمس ملك آشور "تجلات بلاصر" (تلغث فلناسر حسب التوراة). لقد جاء في النص:

"فجاء عليه تلغث فلناسر ملك آشور وضايقه ولم يشدده. لأن آحاز أخذ قسماً من بيت الرب ومن بيت الملك ومن الرؤساء وأعطاه لملك آشور ولكنه لم يساعده"[٩٢]. وبعد أربعة إصحاحات يأتي الحديث على سنحاريب دون ذكر والده أيضاً. والملاحظ أن "الملوك الثاني" يعطي تفاصيل أكثر عن "سنحاريب" و"نبوخذ نصر" من أخبار الأيام الثاني.

يبدأ ذكر "سنحاريب" في الملوك الثاني بعد الإشارة إلى "شلمنصَّر الخامس"، كما أشرنا في عين الإصحاح ١٨: "وفي السنة الرابعة عشرة لملك حزقيا صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور إلى لخيش يقول قد أخطأت. أرجع عني ومهما جعلت على حملته فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. في ذلك الزمان قشّر حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها حزقياً ملك يهوذا ودفعه لملك آشور"[٩٣].

ومما جاء في عين الإصحاح كاستمرار للأحداث السابقة:

"وأرسل ملك آشور ترتان وربساريس وربشاقي من لخيش إلى الملك حزقيا بجيش عظيم إلى أورشليم فصعدوا وأتوا إلى أورشليم. ولما صعدو جاءوا ووقفوا عند قناة البركة العليا التي في طريق حقل القصار. ودعوا الملك فخرج إليهم الياقيم بن حلفيا الذي على

البيت وشبنة الكاتب وبواخ بن آساف المسجل. فقال لهم ربشاقي. قولوا لحزقيا. هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور، أما الاتكال الذي اتكلت عليه، قلت إنما كلام الشفتين هو مشورة وبأس للحرب. والآن على من اتكلت حتى عصيت علي. فالآن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها. هكذا هو فرعون ملك مصر..."[٩٤]. وبعد تهديد القائد الآشوري المستمر دب الذعر في صفوف اليهود لذا قال:

"الياقيم بن حلفيا وشبنة ويواخ لربشاقي: كلم عبيدك بالآرامي لأننا نفهمه ولا تكلمنا باليهودي في مسامع الشعب الذين على السور. فقال لهم ربشاقي: هل إلى سيدك واليك أرسلني سيدي لكي أتكلم بهذا الكلام. أليس إلى الرجال الجالسين على السور ليأكلوا عذرتهم ويشربوا بولهم معكم. ثم وقف ربشاقي ونادى بصوت عظيم باليهودي وتكلم قائلاً: اسمعوا كلام الملك العظيم ملك آشور. هكذا يقول الملك..."[٩٥].

ثم يستمر الربشاقي بتهديده ويطلب أن لا ينساقوا وراء تحريض "حزقيا". وفي الإصحاح التالي نرى أسى "حزقيا" لذا يبدأ بالقول "فلما سمع الملك حزقيا ذلك مزَّق ثيابه وتغطى بمسح ودخل بيت الرب"[٩٦]. إلا أن النبي "أشعيا" يطلب من "حزقيا" عدم الخوف. وينتهي الإصحاح بذكر مصير الآشوريين عبر حدث لا يصدقه أبسط الناس:

"وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً. ولما بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى"[٩٧]. وعلى أي حال إن هذا العدد المزعوم من القتلى يعادل تقريباً ضحايا قنبلتي "هيروشيما" و"ناكازاكي" الذريتين اللتين ألقاهما المجرمون الأمريكان على اليابان عام ١٩٤٥. إن مثل هذه الأكاذيب نراها في "الملوك الأول" حين حارب الآراميون اليهود، ولكن دون تدخل من "ملاك الرب":

"وفي اليوم السابع اشتبكت الحرب فضرب بنو إسرائيل من الآراميين مئة ألف رجل في يوم واحد. والعرب الباقون إلى أفيق إلى المدينة وسقط السور على السبعة والعشرين ألف رجل الباقين"[٩٨].

ولكن حينما يراجع المرء النصوص المسمارية يرى أن الملك "سنحاريب" سطر هذا الحصار في نصوصه بما يؤكد أكاذيب اليهود. قال سنحاريب:

"وبالنسبة لحزقيا اليهودي (حزقياء ويأوادي) الذي لم يخضع لعبوديتي ستاً وأربعين مدينة من مدنه القوية المحصنة، وكذلك المدن الصغيرة المجاورة لها، التي لا حصر لها، حاصرتها وفتحتها بمركبات حربية (شوكبوس آرامي)[٩٩]. وآلات الحصار، وبالمشاة، وبسلالم تسلق القلاع".

"٢٠٠١٥٠ نسمة كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، خيولاً، بغالاً، حميراً، جمالاً، أبقاراً، وأغناماً، بدون حصر جلبتها منهم وجعلتها أسلاباً. ونفسه (حزقيا) أسرته كطير سجين (كيما إصوّر قوبّي) في عاصمة ملكه أورسالمو"[١٠٠].

ومن هذا نفهم أن غاية واضعي تاريخ أحداث التوراة من ذلك التشويه هو بغية طمس معالم اندحارهم وفشلهم وهو ما أوضحه التنقيب الآثاري وقراءة المصادر المسمارية.

وإذا ما اجتزنا "الملوك الثاني" لنأتي إلى "الأيام الثاني" ونتتبع حصار "سنحاريب" لمدن اليهود نرى هناك فرقاً في إيراد بعض النقاط. لقد جاء في الإصحاح٣٢:

"وبعد هذه الأمور وهذه الامانة أتى سنحاريب ودخل يهوذا ونزل على المدن الحصينة وطمع بإخضاعها. ولما رأى حزقيا أن سنحاريب قد أتى ووجهه على محاربة أورشليم تشاور هو ورؤساؤه وجبابرته على طمر مياه العيون التي في خارج المدينة فساعده. فتجمع شعب كثير وطمّوا جميع الينابيع والنهر الجاري في وسط الأرض قائلين: لماذا يأتي ملوك آشور ويجدون مياه غزيرة..."[١٠١]. بعدها يشير النص إلى محاولات لإضفاء المعنوية على نفوس اليهود. ثم يقول ذات الإصحاح:

"بعد هذا أرسل سنحاريب ملك آشور عبيده إلى أورشليم. وهو على لخيش وكل سلطنته معه. إلى حزقيا ملك يهوذا وإلى يهوذا الذين في أورشليم يقولون. هكذا يقول سنحاريب ملك آشور. على ماذا تتكلون وتقيمون الحصار في أورشليم. أليس حزقيا يغوي بكم ليدفعكم للموت بالجوع والعطش..."[١٠٢]. ثم قال عن الآشوريين" "وصرخوا بصوت عظيم باليهودي إلى شعب أورشليم الذين على السور لتخويفهم وترويعهم لكي يأخذوا المدينة"[١٠٣].

والملاحظ هنا أنه لا يوجد أي ذكر لحوار "الرابشاقي". ومما يشير إليه ذات الإصحاح إلى صلاة حزقيا وأشعيا ليتخلصوا من حصار الآشوريين بالقول: "فأرسل الرب ملاكاً فأباد كل جبار بأس ورئيس وقائد في محلة ملك آشور"[١٠٤]. وكما نرى أنه لا يوجد ذكر للأعداد المبالغ فيها للقتلى، كما في الملوك الثاني أو الحديث عن بقاء

بضعة أشخاص بينهم الملك، بل اكتفى النص بالإشارة إلى أن سنحاريب رجع إلى أرضه. ولم يُشر النص إلى من خلفه في حين يشير الملوك الثاني إلى أن الذي أتى بعده ابنه "آسر حدون"[١٠٥] دون أن يعطي أي تفاصيل على الرغم من أنه لعب دوراً كبيراً في سياسة المنطقة، ومن ذلك حملته على مصر لإخراج الأحباش. وكذا لا نرى في كتاب اليهود ما يشير إلى "آشور بانيبال"، ابنه صاحب المنجزات الحضارية والسياسية الرائعة. وبهذا يكون كتاب اليهود قد أهمل الحديث عن عاهلين آشوريين كبيرين حكما للفترة بين ٦٨١-٦٢٦ ق.م أي لما يزيد على النصف قرن. والذي يبدو أن ما أنجزاه من مهام ليس فيه ما يرضي اليهود.

على أي حال، قبل أن ننهي ما ورد من حديث عن الآشوريين في العهد القديم لا بد وأن نشير إلى ملك بابلي لعب دوراً في تأزم العلاقات بين شمال وجنوب القطر، ذلك هو "مردوخ بلدان الثاني" ٧٢١-٧١١ ق.م الذي سبق ذكره وورد اسمه صحيحاً في المصادر العربية، كما مر بنا.

جاء ذكر "مردوخ بلدان" لأول مرة زمن العاهل "تجلات بلاصر" الثالث ٧٤٤-٧٢٧ ق.م وعلى الرغم من أنه كان موجوداً خلال الصراع من "موكن زيري" رئيس قبيلة "آموكاني" الجنوبية إلا أننا نجهل الدور الذي لعبه في ذلك الصراع.

بدأ "مردوخ بلدان" حكمه بالادعاء بأنه مختار الإله "مردوخ" لتصحيح الأخطاء والتي ولدتها السطوة الآشورية، الأمر الذي دفع الملك "سرجون" ٧٢٢-٧٠٥ ق.م إلى القول بأن "بلدان" كان غريباً، ويحتل منطقة بابل بشكل غير شرعي[١٠٦]. وعلى أي حال، لا نريد أن ناتي على كل الأحداث التي جرت على "مردوخ بلدان" بل بالإشارة إلى أنه سيطر على رقعة كبيرة من الأرض الجنوبية شملت بابل، وكيش، بورسبأ وأور خلال النصف الأول من حكم الملك "سرجون". لذا قام العاهل البابلي بحملة لاكتساح المنطقة وكذا "عيلام" جنوب إيران، مما دفع (بلدان) لأن يبحث عن ملجأ له. وبعد أحداث عام ٧٠٩ ق.م لم يعد اسم "مردوخ بلدان" يتردد حتى ارتقاء ابنه "سنحاريب" العرش. لقد قام العاهل الجديد بحملات ضد الثائرين، وكان "بلدان" يلتجئ مرة إلى الأهوار، وأخرى إلى الخليج العربي (البحر الأسفل)، وأخرى إلى "عيلام" ويبدو أنه مات قبل الحملة التي قام بها العاهل الآشوري ضد لاجئي "بيت- ياكين" الكلدان في "عيلام عام ٦٩٤ ق.م لأن النصوص لم تعد تشير إليه.

على أي حال ما يهمنا من التطرق إلى سيرة "بلدان" هو لذكر التوراة له، فلقد أرسل وفداً لملك اليهود الذي أطلعهم على كنوز قصره، مما جلب استياء النبي أشعيا لأنه تنبأ بقدوم اليوم الذي ينقل فيه البابليون خزائن الملك إلى بابل، وإن خلفاء الملك سيشتغلون كخدم في قصره[١٠٧].

وقبل أن ننهي حديث كتاب اليهود عن جانب من العصر الآشوري لا بد من إيراد فقرات بما قاله أشخاص بارزون ممن عرفوا بالأنبياء عن آشور بغية إيضاح الأحقاد التي حملها اليهود ضدها.

لقد جاء في سفر "ناحوم الالقوشي" الموسوم "وحي على نينوى"، بثلاثة إصحاحات، ويبدأ الأخير منها بالقول:

"ويل لمدينة الدماء..." ثم يقول : "ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى من يرثى لها. من أين اطلب لك معزين"[١٠٨] وجاء أيضاً: "تشرق الشمس فتطير ولا يعرف مكانها أين هو. نعست رعاتك ياملك آشور اضطجعت عظماؤك، تشتت شعبك على الجبال ولا من يجمع. ليس جبر لانكسارك. جرحك عديم الشفاء".

وفي سفر "سفنيا بن كوشي" يأتي في نهاية الإصحاح الثاني ما نصه:

"وأنتم أيها الكوشيون قتلى سيفي. ويمد يده على الشمال ويبيد آشور ويجعل نينوى خراباً يابسة كالقفر.. هذه هي المدينة المبتهجة الساكنة مطمئنة القائلة في قلبها أنا وليس غيري..." ثم يبدأ الإصحاح الثالث بالقول مخاطباً آشور بالطبع:

"ويل للمتمردة النجسة المدينة الجائرة".

على أي حال، لقد انتهى العصر الإمبراطوري الآشوري قبيل نهاية القرن ٧ ق.م ليحل العصر البابلي الإمبراطوري. ولما كانت غاية هذه السطور ليست سرد كل شيء يخص هذا العهد بل تصحيح ما تناولته المصادر العربية وما اعتمدت عليه ولا سيَّما العهد القديم.

قبل أن نوغل في الحديث عن العصر البابلي الحديث من المفيد إدراج أسماء ملوكه، لا سيَّما وإن كتاب اليهود يذكر بعضهم:

نبو بولاسر	٦٢٦ - ٦٠٥ ق.م.
نبو خذ نصر	٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م.
أويل مردوخ	٥٦٢ - ٥٦٠ ق.م.

نرجال شار اوصر	٥٦٠ - ٥٥٦ ق.م.
(نرجلسار)	
لباشي مردوخ	حكم بضعة شهور.
نبو نائيد	٥٥٦ - ٥٣٩ ق.م.

على أي حال، لا يظهر ملك بابل العظيم نبوخذ نصر مذنباً على طول الخط في كتاب اليهود. هذا ما يحدثنا عنه مثلاً سفر "ارميا بن حلقيا" من الكهنة الذين سكنوا أرض "بنامين". لقد جاء في الإصحاح ٢٥ منه:

"لذلك هكذا قال رب الجنود، من أجل أنكم لم تسمعوا لكلامي. هأنذا أرسل فأخذ كل عشائر الشمال يقول الرب وإلى نبوخذ راصر عبدي ملك بابل وآتي بهم على هذه الأرض وعلى كل سكانها وعلى كل هذه الشعوب حواليها فأحرمهم واجعلهم دهشاً وصفيراً وخراباً أبدية. وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح صوت العريس وصوت العروس صوت الارحية ونور السراج. تصير كل هذه الأرض خراباً ودهشاً هذه الشعوب ملك بابل سبعين سنة. ويكون عند تمام السبعين سنة أني أعاقب ملك بابل...".

ومهما كانت الحسابات التوراتية، فإن أول حملة على اليهود كانت عام ٥٩٧ ق.م ولو حسبنا من نهاية العصر البابلي الحديث ٥٣٩ ق.م فإن الفترة بينهما هي ٥٢ عاماً لا ٧٠.

أما فيما يخص الحملتين البابليتين الأولى والثانية على "يهوذا" فسوف لا أتحدث عنهما لأن ما أشارت اليهما مصادر التاريخ فيه ما يكفي فالأولى كانت عام ٥٩٧ ق.م والثانية عام ٥٨٦ ق.م.

لم تكن الحملتان البابليتان على اليهود في فلسطين السبب الأول والأخير للأهتمام بأخبار "نبوخذ نصر" بل يضاف إلى ذلك معاصرته لبعض أنبيائهم.

من الأسفار المهمة التي تناولت جانباً من العصر البابلي الحديث سفر النبي "حزقيا" أو "حزقيال" الذي يقع في ٤٨ إصحاحاً، ويختلف هذا الرجل عن الأخرين الذين كتبوا عن ذات الفترة، وثبتت التوراة ما دونوه.

لا يتميز سفر "حزقيال" بما أشرت إليه سابقاً، بل يبدأ الحديث ابتداءاً من بداية السفر الأول بالإشارة إلى حادثة فريدة في منطقة "الخابور" وهي "الخابور" البابلية قرب مدينة "نفر"، ليس بعيداً عن "عفك" وهي ليست "الخابور" السورية، يقول "حزقيال":

"كان في سنة الثلاثين في الشهر الرابع في الخامس من الشهر وأنا بين المسبيين

عند نهر خابور أن السموات انفتحت فرأيت رأي الله في الخامس من الشهر، وهي السنة الخامسة من سبي يوياكين الملك. صار كلام الرب إلى حزقيال الكاهن ابن بوزي في أرض الكلدانيين عند نهر الخابور. وكانت عليه هناك يد الرب. فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال. سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار. ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها. لها شبه إنسان. ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة. وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول. وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة. ووجوهها وأجنحتها بجوانبها الأربعة. وأجنحتها مُتَّصلة الواحد بأخيه. لم تدر عند سيرها فهذه أوجهها. أما أجنحتها فمبسوطة من فوق. لكل واحد اثنان متصلان أحدهما بأخيه وأثنان يغطيان أجسامها. وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهة. إلى حيث تكون الروح لتسير تسير. لم تدر عند سيرها".

ثم يستمر "حزقيال" بهذا الوصف الطريف للمركبة الهابطة من السماء:

"فنظرت الحيوانات وإذا بكرة واحدة على الأرض بجانب الحيوانات بأوجهها الأربعة منظر البكرات وصنعتها كأنّها كانت وسط بكرة. لما سارت سارت على جوانبها الأربعة لم تدر عند سيرها. أما أطرها فعالية ومخيفة. وأطرها ملآنة عيوناً حواليها للأربع. فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها وإذا ارتفعت الحيونات عن الأرض ارتفعت البكرات.. وعلى رؤوس الحيوانات شبه مقبب كمنظر البلور الهائل منتشراً على رؤوسها من فوق... فلما سارت سمعت صوت أجنحتها. فكان صوت من فوق المقبب الذي على رؤوسها. إذا وقفت أرخت أجنحتها..." ثم يوالي "حزقيال" وصف تلك المركبة التي ربما يذكّرنا وصفها باللوناخود الروسية التي حطت على سطح القمر. وفي الإصحاح الثاني يخبرنا عن الصوت الذي خرج من المركبة مُكَلِّماً إياه واصفاً اليهود الذين كانوا في أسر "نبوخذ نصر" بما يمكن متابعته:

"فقال لي يا ابن آدم قم على قدميك فاتكلم معك. فدخل في روح لما تكلم معي وأقامني على قدمي فسمعت المتكلم معي. وقال يا ابن آدم أنا مرسلك إلى بني إسرائيل إلى أمّة متمرِّدة قد تمرَّدت علي ... أما أنت يا ابن آدم فلا تخف منهم ومن كلامهم لا تخف لأنهم مريس وسلاء لديك وأنت ساكن بين العقارب ... لأنهم بيت متمرد".

ومن يكمل هذه القصة يرى الطرافة في جوانبها فهل هبطت سفينة؟ إن بعض

المختصين حاولوا تشكيل نموذج لها عبر الوصف المذكور. وعلى أي حال، لا نريد أن نزيد على ذلك أكثر من القول أن ملك مدينة "كيش"، "ايتانا" الراعي"، قرب بابل، التي نزلت الملكية فيها بعد الطوفان، كان عقيماً، لذا أرشده إله الشمس إلى نسر في حفرة وأنه بإمكانه أن يستقل ظهره ليرقى إلى السماء السابعة حيث يجد النبات الذي يساعده على الإنجاب[١٠٩] ومن العصر الأكادي لدينا ختم أسطواني لهذه القصة ما نقش عليه يمثل "إيتانا" على ظهر النسر ومن حوله نجوم السماء ويعود عمر الختم لنحو ٤٣٥٠ عاماً.

أما الإصحاحات التالية في سفر "حزقيال" فهي لا تتحدث عن العاهل البابلي الذي عاش زمانه بسوء، بل بالعكس من ذلك، فبعد أن يذكر ملك مصر بتقريع واضح يأتي ليقول:

"لأنه هكذا قال السيد الرب. سيف ملك بابل يأتي عليك. بسيوف الجبابرة أسقط جمهورك. كلهم عناة الأمم فيسلبون كبرياء مصر ويهلك كل جمهورك"[١١٠] وجاء أيضاً من سفر آخر: "هكذا قال السيد الرب. إني أبيد ثروة مصر بيد نبوخذ نصر ملك بابل"[١١١]. وقال بعد تقريع ملك مصر أيضاً: "واشدد ذراعي ملك بابل واجعل سيفي في يده"[١١٢]، ويكرر هذه العبارة مراراً صاباً جام غضبه على ملك مصر وشعبه دون تبرير واضح.

أما "دانيال" الذي يلي سفره "حزقيال" فقد خص العاهل البابلي بذكر مستمر عبر إصحاحاته الاثني عشر، بل إن الأول فيها يبدأ بعبارة:

"في السنة الثالثة من ملك يهويا قيم ملك يهوذا ذهب نبوخذ نصر ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها".

أما الإصحاح الثاني فيبدأ بالقول:

"وفي السنة الثانية من ملك نبوخذ نصر حلم نبوخذ نصر أحلاماً فانزعجت روحه وطار عنه نومه". ثم يشير إلى طلبه للمفسرين على اختلاف أصولهم ومراتبهم إلا أنهم لم يستطيعوا حسب زعم كاتب السطور الأمر الذي جعله يستشيط غضباً "وأمر بإبادة كل حكماء بابل.. فطلبوا دانيال وأصحابه ليقتلوهم"[١١٣]. وهناك تتدخل رحمة "دانيال" واليهود لإنقاذ الحكماء كما نفهم من العبارة: "فمن أجل ذلك دخل دانيال إلى اريوخ الذي عينه الملك لإبادة حكماء بابل. مضى وقال له هكذا. لا تبد حكماء بابل.

أدخلني إلى قدام الملك فأبين للملك التعبير"[١١٤]. ثم يأتي تفسير الحلم الذي تعرضه قصة مفادها أن الملك رأى تمثالاً عظيماً رأسه من ذهب جيد وصدره وذراعاه من فضة وبطنه وفخذاه من نحاس في حين كانت ساقاه بعضها من حديد وبعضها من خزف. وفي النهاية تدعي القصة تهشيم التمثال ثم يأتي التفسير المفترض بالقول:

"أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إله السموات أعطاك ملكاً واقتداراً وسلطاناً وفخراً... فأنت هذا الرأس من ذهب وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض. وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد.. وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث أنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين"[١١٥]. ولما في هذا التفسير من الأخبار "السارة" يقول كاتب النص:

"حينئذ خرَّ نبوخذ نصر على وجهه وسجد لدانيال وأمر بأن يُقدِّموا له تقدمه وروائح سرور"[١١٦]!!.

أما الإصحاح الثالث لدانيال فيخبرنا أن الملك صنع "تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً وعرضه ستة أذرع ونصبه في بقعة دوراً في ولاية بابل". واذا اعتبرنا أن طول الذراع هو نصف متر يكون طول التمثال ثلاثين متراً وعرضه ثلاثة، أي إنه بارتفاع مبنى بعشرة طوابق. وهذا كذب فاضح.

ثم يستمر الإصحاح بالقول إن الملك طلب من الجميع أن يسجدوا له فسجدوا باستثناء اليهود. لذا غضب الملك وطلب تهيئة أتون من نار شديدة: "والأتون قد حمي جداً قتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شردخ وميشخ وعبد نغو"[١١٧] كانوا "يتمشون في وسط النار وما يهمهم ضرر"[١١٨]. الأمر الذي دفع الملك إلى تقدير هؤلاء الثلاثة. حينئذ قدم الملك شردخ وميشخ وعبد نغو في ولاية بابل.

وفي الإصحاح الرابع لم يخلص العاهل البابلي من "كابوس الأحلام"، على الرغم من أن كاتب النص يظهره كمؤمن بالله:

"من نبوخذ نصر إلى كل الشعوب والألسنة الساكنين في الأرض كلها لكثر سلامكم. الآيات والعجائب التي صنعها معي الله العلي حسن عندي أن أخبر بها. آياته ما أعظمها وعجائبه ما أقواها ملكوته ملكوت أبدي وسلطانه إلى دور فدور". بعدها يقول:

"أنا نبوخذ نصر قد كنت مطمئناً في بيتي وناظراً في قصري. رأيت حلماً فروعني

والأفكار على فراشي ورؤى رأسي أفزعتني. فصدر مني أمر بإحضار جميع حكماء بابل قدامي ليعرفوني بتعبير الحلم".

ثم تشير السطور كالسابق إلى عدم مقدرتهم جميعاً ليأتي دور "دانيال" في تفسير الحلم المزعوم ليقول: "الشجرة التي رأيتها التي كبرت وقويت وبلغ علوها إلى السماء ومنظرها إلى كل الأرض.. إنما هي أنت أيها الملك الذي كبرت وتقويت وعظمتك قد زادت وبلغت إلى السماء وسلطاتك إلى أقصى الأرض". ثم ينزل من السماء من يقطع الشجرة.بعدها ياتي بيت القصيد من وراء تلك الأقاويل. يقول الكاتب اليهودي:

"فهذا هو التعبير أيها الملك وهذا هو قضاء العلي الذي يأتي على سيدي الملك يطردونك من بين الناس وتكون سكناك مع حيوان البر ويطعمونك العشب كالثيران ويبلونك بندى السماء. فتمضي عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس ويعطيها من يشاء ..." ثم يقول:

"أيها الملك فلتكن مشورتي مقبولة لديك وفارق خطاياك بالبر وآثامك بالرحمة للمساكين لعله يطال اطمئنانك". والغريب أن الإصحاح بدأ واعترف بأن العاهل البابلي آمن بملكوت الله وعظمته فكيف تنقلب الأمور في عين الإصحاح.

ثم تأتي السطور التالية للتعبير عن المعاني الخفية بغية النيل من ملك بابل بالقول، في عين الإصحاح الرابع:

"كل هذا جاء على نبو خذنصر الملك. عند نهاية اثني عشر شهراً كان يتمشى على قصر مملكة بابل وأجاب الملك فقال: أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتداري ولجلال مجدي". ثم يقول النص مباشرة: "والكلمة بعد بفم الملك وقع صوت من السماء قائلاً لك يقولون يا نبوخذ نصر الملك أن الملك قد زال عنك ويطردونك من بين الناس وتكون سكناك مع حيوان البر ويطعمونك العشب كالثيران فتمضي عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس وأنه يعطيها من يشاء" ثم يقول الكاتب:

"في تلك الساعة تم الأمر على نبوخذ نصر فطرد من بين الناس وأكل العشب كالثيران وابتل جسمه بندى السماء حتى طال شعره مثل النسور وأظفاره مثل الطيور. وعند انتهاء الأيام أنا نبوخذ نصر رفعت عيني إلى السماء فرجع إليَّ عقلي وباركت العلي وسبحت وحمدت الحي إلى الأبد..." علماً بأن نبوخذ نصر قالها منذ بداية الإصحاح كما

أشرت. وكما نفهم من كتب التاريخ أن الذين أكلوا الحشيش هم ملوك اليهود لا العراق.

ومن الغريب أن هذه القصة السخيفة المليئة بالكذب بغية تشويه سمعة ملك بابل العظيم قد انسلت إلى موسوعات علمية[١١٩]. على الرغم من أن التنقيبات الأثرية أثبتت القدم الراسخة لملك بابل، وأن تشويه سمعة من قدموا العطاء للحضارة ليست جديدة على العقل اليهودي حتى أن أنبياءهم لم يسلموا من الطعن حتى بأعراضهم.

أما الإصحاح الخاص لدانيال فينتهي من العاهل البابلي "نبوخذ نصر" ليأتي إلى ملك يسميه "بيلشاصر" يقول الإصحاح في بدايته.

"بيلشاصر الملك صنع وليمة عظيمة لعظمائه الألف وشرب خمراً قدام الألف. وإذ كان بيلشاصر يذوق الخمر أمر بإحضار آنية الذهب والفضة التي أخرجها نبوخذ نصر أبوه من الهيكل الذي في أورشليم ليشرب بها الملك وعظماؤه وزوجاته وسراريه..." ولعل أكثر الأمور خطأ في هذه الفقرة أن الكاتب جعل "بيلشاصر" (واسمه الحقيقي بيل-شار-أصر) هو ابن (نابونائيد) ٥٥٦- ٥٣٩ ق.م آخر ملوك بابل وليس ابن "نبوخذ نصر" وإن نبو نائيد" ليس من الخط الملكي وإن أصله يعود إلى حران في أعالي سورية[١٢٠].

ثم يأتي بيت القصيد، بما عَوّدنا كاتب هذا السفر بالحديث عن الاحلام والرؤى:

"في تلك الساعة ظهرت أصابع يد إنسان وكتب بآراء النبراس على مكلس حائط قصر الملك والملك ينظر طرف اليد الكاتبة. حينئذ تغيرت هيئة الملك وفروعته أفكاره وانحلت خزر حقوية واصطكت ركبتاه".

وكالسابق يأتي الملك بالمنجمين والعرافين لتأويل ما رآه ولكن دون جدوى. ثم يأتي من جديد دور "دانيال" لحل المبهمات. لقد كانت الكتابة التي زعم كاتب النص أن الملك رآها على الحائط: "منا تقيل وفرسين". ويكون تفسير ذلك:

"منا: أحصى الله ملكوتك وأنهاه. تقيل: وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً. فرس: قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس"[١٢١]. وعلى الرغم من هذا التفسير الذي لا يسر أحداً، وما فيه من دعاية لفارس ولتثبيط عزائم البابليين، ينتهي الإصحاح بالقول:

"حينئذ أمر بيلشاصر أن يلبسوا دانيال الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقه وينادوا عليه أنه يكون متسلطاً ثالثاً في المملكة. ثم يأتي بيت القصيد عبر العبارة التالية:

"في تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين فأخذ المملكة داريوس المادي وهو

ابن اثنين وستين سنة". أما الإصحاح السادس لدانيال فيبدأ بالحديث عن مملكة دارا الأخمينية. وعلى الرغم من ذلك يعود الكاتب ليتحدث من جديد عن حلم دانيال في السنة الأولى لحكم "بيلشاصر" في الإصحاح السابع ويتحدث الثامن عن حلم آخر لدانيال في السنة الثالثة لحكم بيلشاصر. وتتحدث الإصحاحات التالية لدانيال عن الفرس ليختفي ذكر بابل.

بعد أن عرضت لسطور عديدة من العهد القديم لا بد من الإشارة إلى أنها ليست لتقريع جانب ديني يمس وحدانية أو شخصاً محسوباً على الله. بل وفيها إيضاح لحقائق تاريخية. لأن كل ما لا يتماشى مع الواقع وما أظهرته التنقيبات من وثائق لا يمكن أن يكون مقدساً لأن غايات الكتبة اليهود في الكثير مما دونوا معروفة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بما جاء في قوله تعالى: "يحرّفون الكلم عن مواضعه"[١٢٢]. وقوله: "ونسوا حظاً مما ذكروا به"[١٢٣]. وعلى أي حال حين نراجع فقرات أخرى من التوراة نرى ما يؤكد هذه الحقيقة، إذ قبل إنهاء هذه السطور لا بد من إيضاح المزيد من ذلك عبر الوجيز من الحقائق الأمر الذي يؤكّد بأن ما ذكره الكتبة اليهود عن العراق القديم بعيد عن الصحة في جوانب عديدة.

من المعروف أن الأديان السماوية جاءت لخير الإنسان وتعليمه قيم الأخلاق والتضحية من أجل الإصلاح لا الفساد والدمار. والآن، حين نتابع سطوراً أخرى من التوراة هل نرى فيها ذلك؟.

في الإصحاح ١٢ من الخروج يوصي موسى وأخوه اليهود (حسبما ورد)، أن يكون لكل بيت "شاة صحيحة ذكر ابن سنة... ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية ويآخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها..."[١٢٤]. أما الغاية من ذلك فتوضحها السطور التالية:

"فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في مصر من الناس والبهائم... ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر"[١٢٥]. إن السطور مارة الذكر تؤكد أن عنصرية التوراة ليست مع الناس فحسب بل حتى مع البهائم.

وتكريماً لتدمير مصر (يقول الرب):

"ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب سبعة أيام تأكلون فطيراً"[١٢٦].

ويأتي اليوم (الموعود): "وكان صراخ عظيم في مصر. لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت"[١٢٧].

وإذا كانت مصر قد (استعبدت) اليهود فحين نأتي إلى ديار العجم فهل سلمت من دسائسهم لا سيَّما وأن "كورش" الأخميني ومن تلاه قد تساهل معهم وسمح لهم بالذهاب إلى فلسطين بعد انتهاء الحكم الوطني ببابل؟ حين نقلِّب صفحات العهد القديم نأتي إلى سفر لامرأة تدعى "استير". إنها ليست (نبية) ولا (رسولة) بل لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد. انتقمت من الفرس لا لأنهم نكَّلوا بها أو أساؤوا معاملتها، بل إنها كانت إحدى ملكاتهم. لقد كانت زوجة الملك "احشويرش" ٤٨٥-٤٦٥ ق.م ولأعمالها في القتل والتآمر جعل اليهود لها سفراً بعشرة إصحاحات. ويكفي أن نتأمل فقرة من الإصحاح التاسع لنعلم شيئاً، فبعد أعمال قتل وتصفية في القصر أمام الملك، يقول كاتب السفر عن أعمال تكميلية أخرى:

"وباقي اليهود الذين في بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لأجل أنفسهم واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفاً"[١٢٨]. واحتفالاً بتلك المجازر:

"لذلك دعوا تلك الأيام فوريم على اسم الفور"[١٢٩]. ويكون الاحتفال ليومين في آذار من كل سنة.

وعلى أي حال، إن نقد الفكر التوراتي ليس بالأمر الجديد فقد تناولته أقلام كثيرة منذ مئات السنين من ذلك ما ذكره ابن حزم الأندلسي (ت-٤٥٦هـ) في كتابه "الفصل في الاهواء والملل والنحل" بما يزيد عن المئة صفحة في جزئه الأول، بما هو متداول من النسخ[١٣٠].

وممن نقد فكر التوراة الكاتب اليهودي "ابرهام بن عزرا"[١٣١]، وهو من الأندلس والمولود في "طليطلة" عام ١٠٩٢م وفي عام ١٦٧٨م أصدر "ريشارد سيمون" كتابه الموسوم "التاريخ النقدي للعهد القديم" الذي نفى فيه نسبة الأسفار الأولى إلى موسى[١٣٢].

من الباحثين الذين ينبغي للعالم العربي أن يلتفت إلى ما كتبوا في مجال اليهودية الدكتور "مهنا يوسف حداد" بما طرحه في رسالته للدكتوراه التي حصل عليها من جامعة "اترخت" الهولندية المعنونة "الرؤية العربية لليهودية"[١٣٣].

يستعرض د. مهنا في الفصل التاسع من كتابه "فكرة الإله في اليهودية أو تحريف فكرة الإله في الديانة اليهودية"، الذي يقول فيه:

"وتجابهنا التوراة بعد موسى بأعداد كبيرة من الأنبياء بحيث يصعب معرفة من هو النبي ومن هو ليس كذلك"[١٣٤]. ثم يأتي ليعزز رأية بما قاله النبي "ارميا" في سفره عنهم:

"وهكذا قال رب الجنود لا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم. فإنهم يجعلونكم باطلاً. يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب". ومن ثم فإننا سوف لا نسأل النبي "ارميا" عما أورده الحاخام "دانيال" عن بابل من نبوءات، لأنه سيؤيدنا بما ذهبنا إليه.

وعلى أي حال، لا أريد أن أطيل أكثر من ذلك بهذه المادة ما دام ما يخصنا هو ما تعلق بموضوع العراق القديم، الا أنه من المفيد الإشارة إلى مصدر يهودي له أهميته في الفكر اليهودي، وربما أثر في صياغة أفكار أناس من غير اليهود ذلك هو ما يعرف بالتلمود بنوعيه "البابلي" و"الفلسطيني" الذي انتهوا أتباعه من صياغته عام ٥٠٠ م ويخص إرشادات الحياة اليومية لليهود بقسميه "المشنى" و"الجمارا". لقد جاء عن مفهوم كتبه هذا المؤلف عن الله:

"حين حرق الهيكل يكون الله بمثابة ملك من البشر. سقطت مملكته، قبل ذلك الوقت كان الله مغرماً بالرقص واللعب. وبعد سقوط الهيكل توقَّف هذا الفرح ولم يقدر سوى على النواح والبكاء بسبب الخطأ الذي وقع فيه. وسماحه بسبي شعبه وهدم مدينته"[١٣٥].

فهل كان الجيش البابلي وملكه أقوى من الخالق؟ لقد سبق أن أشرنا إلى ما ورد في التوراة من أن "نبوخذ نصر" الذي أزال الهيكل ومملكة اليهود لم يكن إلا عبداً لله اصطفاه لتأديبهم.

بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ التي شنَّها الإرهابيون العنصريون ضد العرب، حدثت رجَّة بين المفكرين العرب وبينهم المسيحيون. لقد وافقنا مجلة "الأسبوع العربي، الصادرة عام ١٩٦٨ في ١٧ أيار بعددها ٤٩٨ ص٥٢-٥٣ بما يلي:

"من طرابلس الغرب، يكتب أنيس فاخوري، عن النزاع المصيري والصهيونية، كاشفا عن جانب مهم من حقيقة اليهودية، المشوهة للحقيقة المسيحية وداعياً إلى خدمة القضية العربية بطريقة مجدية تكون كانتصار الحق بمحو الهالة المقدسة عن اليهود" ومنها أيضاً:

"معركة علمية تاريخية تستطيع أن تفقد فيها إسرائيل الدعم الغربي القائم على مفاهيم خاطئة" وفي (ص٤٩) جاء:

"اليهودية رفضت المسيح لأنه كسر طوق العنصرية وأبطل أسطورة الشعب المختار".

"فضح التظليل الديني اليهودي يفصل الغرب عن الصهيونية".

ولكن أين ذهبت تلك المقترحات البناءة. إنها لم تذهب، وآمل أن تعيدها سطور هذه الدراسة.

الخلاصة

لقد وافتنا السطور السالفة بمعلومات عن مادة تاريخية تخص العراق القديم، اعتمدت على ما تيسر لها من فقرات عبر المتوارث من القول. وربما اعتمد بعض القدماء على كتاب دون غيره فصاغ استنتاجاته وجداوله في ترتيب أسماء الملوك وسني حكمهم تبعاً لذلك. ومما لا شك فيه أن لصبغة فترة معينة علاقة لما يكتب من مادة.

وعلى أي حال، لما كانت المصادر والمراجع العربية قيد التداول، بات ضرورياً إضافة استدراكات إلى القارئ لتلافي وقوعه في الأخطاء، وقد رأينا كيف أن الكتّاب اليهود والفرس قد أوغلوا في تشويه العديد من تلك النصوص، ثم نقلها العرب وغيرهم من المسلمين عنهم دون تحميص، وربما لعدم وجود البديل والسند الذي يعتمدون عليه لوضع مادة ما بصورة أفضل.

إن إيضاح أخطاء ما وقع فيه الأقدمون من أخطاء، عبر منطق علمي، على جانب كبير من الأهمية، لأن تركها دون إصلاح يعني وقوع من ينقل عنها بعين الأخطاء مسألة واردة. أضف إلى ذلك أن من يحاول الإساءة إلى تراثنا بإمكانه وضع ما يريد من معلومات غير سليمة. ولنأخذ على سبيل المثال ما ذهب إليه كاتب حديث، صدر له مؤلف عام (١٩٨٣) تحت عنوان "اعجام الاعجام". لقد قال عن "نبوخذ نصر" ما يلي:

"كان حاكم بلاد بابل من قبل ملك الفرس، ثم سار بأمره إلى الشام، فصالح ملكها، وترك عنده رهائن بذلك..." وقال:

"وكلمة بختنصر مركب مزجي كحضرموت وبعلبك، وتركيبه من بخت موب بوخت بمعنى ابن، ونصر اسم صنم وجد عنده هذا الملك لقيطاً أول ولادته فنسب إليه، إذ لم يعرف له أب"[١٣٣]. وكما مر بنا أن اسم "نبوخذ نصر" محرف عن اسمه البابلي" "نابو كدري-اصر"، أما أبوه فهو مؤسس السلالة البابلية الحديثة "نبوبولاسر" ٦٢٦-٦٠٥ ق.م.

وعلى أي حال، فإن شأن ما وضعه الباحث من مادة يمكن أن يُعدّ مدخلاً لتمحيص علمي شامل بما يحقق كتابة تراث رصين.

الهوامش

١. ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١، ج/١ص/٣-٤.

٢. المصدر السابق، ج/١ ص/٩.

٣. صالح مهدي عباس، تصنيف العلوم العربية وتعريفها عند شمس الدين بن الأكفاني، الندوة القطرية الخامسة لمركز إحياء التراث، ج/١، بغداد ١٩٨٩، ص/٥٩٨- ٦٢٨.

٤. ولا تزال الحروف اليونانية إلى الأن تحتفظ بأسمائها العربية: "الفا، بيتا، كاما، دلتا،...إلخ أي: (حيوان اليف، البيت، الجمل، الباب، وهي من دالتو الأكادية).

٥. حول جلجامش يراجع: طه باقر، ملحمة كلكامش، (سلسلة الثقافة العامة ٨) وزارة الإعلام بغداد ١٩٧١، ص/١٣- ٤٦.

٦. حول الموضوع يراجع: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد ١٩٧٣، ج/١، ص/١٤٥-١٤٩-٢٨٧-٣١١.

٧. الفقطي، جمال الدين، تاريخ الحكماء، لا يبزك، ١٩٠٣، ص/١١.

٨. البيروني، أبو الريحان، القانون المسعودي، الدكن، ١٩٥٤، ج/١، ص/١٤٩.

٩. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب الكاتب (ابن واضح الاخباري) تاريخ اليعقوبي، النجف، ١٩٦٤، ج/٣، ص/٦٨.

١٠. طه باقر، مقدمة، ج/١، ص، ٢٩١-٣٠٧-٣٠٨.

١١. المسعودي، أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، باريس، ص/٧٨-٩٢. تاريخ ابن خلدون. ج/٢، ص/٧٠.

١٢. ابن خلدون،ج/٢. ص/٦٩. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، المعارف، "تحقيق ثروة

عكاشة" مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠، ص/١٩. وقد أشار الطبري أنه عاش ألف عام. تاريخ الطبري (ذخائر العرب- ٣٠) (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم). دار المعارف، مصر، ج/١، ص، كما أشار إلى ما ذكرته التوراة من أنه عاش ٩٣٥ سنة ص/١٥٨.

١٣. الطبري، ج/١، ص/١٧٤. وأشار إلى أنه عاش، ٣٥٠ عاماً بعد الطوفان وأيضاً ابن قتيبة، المعارف، ص/٢١.

١٤. اليعقوبي، ج/١، ص/١٦.

١٥. ابن خلدون. ج/١، ص/٩.

١٦. ابن خلدون. ج/٢، ص/٥.

١٧. ١٨. يراجع الهامش ٩-١١.

١٩. تاريخ ابن خلدون ج/٢، ص/٧٠.

٢٠. المسعودي، ج/٢، ص/٩٥- ١٠٤.

٢١. المسعودي، ج/٢، ص/٩٥.

٢٢. المسعودي. ج/١، ص/١٤٩.

٢٣. البيروني أبو الريحاني، القانون المسعودي، الدكن، ١٩٥٤،ج/١، ص/١٥١.

٢٤. ٢٥. البيروني، ج/١، ص/١٥٤.

٢٦. وفي النص: وقضيتها.

٢٧. البيروني، ج/١، ص/١٥٦.

٢٨. وبالنص: الاثوريون. وقد صححت.

٢٩. المسعودي، ج/٢، ص/٩٤.

٣٠. البيروني، ج/١، ص/١٥١.

٣١. طه باقر، مقدمة. بغداد، ١٩٥٦، ج/٢، ص/٥١٦.

٣٢. وفي النص: (صديقه) يبدو هناك مزج بين "حزقيا" و"صدقيا" ملكا اليهود.

٣٣. الطبري، ج/١، ص/٥٢٢.

٣٤. الطبري، ج/١، ص/٥٣٣.

٣٥. الطبري، ج/١، ص/ ٥٣٤.

٣٦. الطبري، ج/١، ص/٥٣٤-٣٥.

٣٧. الطبري، ج/١، ص/٥٣٥.

٣٨. النويري: شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، (سلسلة تراثنا) وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية، مطابع كوستاتوماس، السفر ١٥، ص/٢٦١,

٣٩. ٤٠. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٤-٥.

٤١. وفي النص: آبنائك.

٤٢. ٤٣. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٥.

٤٤. ابن العبري، غريغوريوس الملطي، تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨، ص/٣٨.

٤٥. المصدر السابق، ص/٣٩، وقد وردت كلمة "الآشوريون" بصيغة الاثوريون وقد أصلحت.

٤٦. ابن قتيبة، المعارف، ص/٤٦.

٤٧. يراجع: حياة ابراهيم، نبوخذ نصر الثاني، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد/١٩٨٣. ص/٥٣-٥٤.

٤٨. الطبري، ج/١، ص/٥٠٤- ٥١٦.

٤٩. ويقصد : صدقيا.

٥٠. الطبري، ج/١، ص/٥٤١.

٥١. الطبري، ج/١، ص/٥٤٢.

٥٢. حياة ابراهيم، ص/٧٨.

٥٣. الطبري، ج/١، ص/٥٣٩.

٥٤. ابن قتيبة ص/٤٧-٤٨.

٥٥. وبالنص: سنجاريف.

٥٦. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٨.

٥٧. النويري، السفر، ١٥، ص/٢٦١.

٥٨. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٧.

٥٩. النويري، السفر ١٥، ص/٢٦١.

٦٠. ابن العبري، ص/٣٩.

٦١. ابن العبري، ص/٦٦.

٦٢. ابن العبري، ص/٤١.

٦٣. الطبري، ج/١، ص/٥٤٣.

٦٤. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٨.

٦٥. الطبري، ج/٢، ص/٢٠٣.

٦٦. الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيق احسان عباس) مكتبة لبنان، ١٩٨٤، ص/٧٣.

٦٧. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧. ج/١، ص/٣٠٩-٣١٠.

٦٨. كثير ما يذكر هذا الاسم في المصادر العربية كملك بابلي، رغم أنه لا يوجد ملك بهذا الاسم، ويأتي ضمن قصص خرافية يبدو أنها من ترويج الفرس واليهود، ويبدو أن الاسم أتى من اسم مدينة "بورسب" إلى الجنوب من بابل، وقد عالجت هذا الموضوع في كتابه الأول عن أعياد الربيع وأصل النوروز.

٦٩. ياقوت الحموي، ج/١، ص/٤٤٨.

٧٠. ياقوت، ج/١، ص/٢١.

٧١. وفي النص (الكنعانيين) وقد أُصلحت إلى ما أشرنا في النص.

٧٢. ابو الفداء عماد الدين، تقويم البلدان، ص/٣٠٢-٣.

٧٣. ياقوت، جم، ص/٣٣٩.

٧٤. الحميري، الروض المعطار، ص/٥٨٥-٦.

٧٥. التكوين (١١: ١-٨).

٧٦. حول هذا الربح يراجع: كريشن، فريتز، عجائب الدنيا في عمارة بابل، (ترجمة د. صبحي انور رشيد) المؤسسة العامة للآثار ٣ بغداد ١٩٨٢، ص/٧-٣٤.

٧٧. الشورى ١١.

٧٨. ارميا (٢٨: ٤، ١٠) (٢٩: ١، ٤).

٧٩. ارميا (٤٦ : ٢٦).

٨٠. ملوك ٢ (١٦: ٧-١٠).

٨١. ملوك ٢ (١٦: ١٧-١٩).

٨٢. سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة ١٩٧٢، ص/٣١٣.

٨٣. المصدر السابق، ص/٨٧. طه باقر، مقدمة، ج/١، ص/٥١٣-٥٥٠-٥١.

٨٤. الأيام ٢ (٢٨ : ١٦-٢١).

٨٥. الأيام ٢ (٣٣ : ١- ١١).

٨٦. يونان (١ : ١).

٨٧. طه ٢٤.

٨٨. طه ٤٣.

٨٩. يونان (٣ : ١-١٠).

٩٠. ملوك ٢ (١٧ : ١- ١٦).

٩١. ملوك ٢ (١٨ : ١- ١١).

٩٢. أيام ٢ (٢٨ : ٢٠- ٢١).

٩٣. ملوك ٢ (١٢- ١٦).

٩٤. ملوك ٢ (١٨ : ١٧-٢٤).

٩٥. ملوك ٢ (١٨ : ١٧- ٢٦-٢٩).

٩٦. ملوك ٢ (١٩ : ١).

٩٧. ملوك ٢ (١٩ : ٢٥-٢٦).

٩٨. ملوك ١ (٢٠ : ٢٩- ٣٠).

٩٩. ١٠٠. الشمس، ماجد عبد الله، من تاريخ الفترة الآشورية في القسم الجنوبي من العراق/ مجلة سومر، بغداد، ١٩٧٣، م-٢٩، ص/٢٩٦.

١٠١. أيام ٢ (٣٢ : ١- ٤).

١٠٢. أيام ٢ (٣٢ : ٩- ١١).

١٠٣. أيام ٢ (٣٢: ١٨).

١٠٤. أيام ٢ (٣٢: ٢٠- ٢١).

١٠٥. ملوك ٢ (١٩: ٢٧).

١٠٦. Brinkman A.j. Marodach – Baladan II, U.S.A. 1964, P.13.
يراجع أيضاً : الشمس، ص/٢٩١.

١٠٧. ملوك ٢ (٢٠: ١٢-٢١).

١٠٨. ناحوم (٣: ١- ٧).

١٠٩. د. الاحمد، سامي سعيد، الأدب في العراق القديم، (سلسلة الموسوعة التاريخية الموسعة) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠.

١١٠. حزقيال (٣٢: ١١).

١١١. حزقيال (٣٠: ١٠).

١١٢. حزقيال (٣٠: ٢٤).

١١٣. دانيال (٢: ١٢- ١٣).

١١٤. دانيال (٢: ٢٤).

١١٥. دانيال (٢: ٣١- ٣٣).

١١٦. دانيال (٢: ٤٦).

١١٧. دانيال (٣: ٢٢).

١١٨. دانيال (٣: ٢٥).

١١٩. موسوعة المعرفة، لبنان ١٩٨١، م ١٨، ص/٣٠٦-٧.

١٢٠. طه باقر، ج/١، ص/٥٥٠-٥١.

١٢١. دانيال (٥: ٢٥- ٢٧).

١٢٢. ١٢٣. المائدة ١٣.

١٢٤. خروج (١٢: ٥- ٧).

١٢٥. خروج (١٢: ١٢- ١٣).

١٢٦. خروج (١٢: ١٤).

١٢٧. خروج (١٢: ٢٠).

١٢٨. استير (٩: ١٦).

١٢٩. استير (٩: ٢٦).

١٣٠. ابن حزم الأندلسي، الفاصل في الأهواء والملل والنحل، (بغداد، عن الطبعة المصرية) م ١، ص/ ١١٦- ٢٢٤.

١٣١. حسين ذو الفقار صبري، "أصول التوراة لماذا أسقطت أربعة قرون من التاريخ"، مجلة العربي، الكويت، العدد ٢٥٢، تشرين ٢، ١٩٧٩، ص/٤٥.

المصادر

الأحمد، سامي سعيد، الأدب في العراق القديم، (سلسلة الموسوعة التاريخية الموسعة)، دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠.

ابن حزم الأندلسي، الفصل في الأهواء والملل والنحل، بغداد، (عن الطبعة المصرية).

ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون (المقدمة) بيروت ١٩٧١.

ابن العبري، غريغوريوس الملطي، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٨.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، المعارف، (تحقيق ثروة عكاشة)، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.

البيروني، أبو الريحان، القانون المسعودي، الدكن، ١٩٥٤، ج/١.

حسين ذو الفقار صبري، "اصول التوراة لماذا اسقطت أربعة قرون" مجلة العربي، الكويت، تشرين الثاني، ١٩٧٩.

الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيق احسان عباس)، مكتبة لبنان، ١٩٨٤.

حياة ابراهيم، نبوخذ نصر الثاني، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٨٣.

سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٢.

الشمس، ماجد عبد الله، "من تاريخ الفترة الآشورية في القسم الجنوبي من العراق" مجلة سومر، بغداد، ١٩٧٣.

صالح مهدي عباس، "تصنيف العلوم وتعريفها عند شمس الدين ابن الأكفاني" الندوة القطرية - ٥ (مركز إحياء التراث العلمي العربي) بغداد ١٩٨٩، ج/١.

الطبري، أبو جرير، تاريخ الطبري، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ذخائر العرب - ٣٠ دار المعارف، مصر.

طـه بـاقر، مقدمـة في تـاريخ الحضـارات القديمـة، دار البيـان- ٥٣، بغـداد ١٩٧٣، ج/١.

ملحمة كلكامش، (سلسلة الثقافة العامة ـ٨) وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧١.

القفطي، جمال الدين، تاريخ الحكماء، ليبزك، ١٩٠٣.

كريشـن، فريتـز، عجائـب الـدنيا في عمـارة بابـل، (ترجمـة د. صـبحي أنـور)، المؤسسة العامة للآثار- ٣ بغداد، ١٩٨٣.

المسعودي، أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، باريس.

النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، (سلسلة تراثنا) وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية- مطابع كوستا توماس، السفر - ١٥.

Brinkman, A. j, Marodach - Baladan II, U.S.A. 1964.